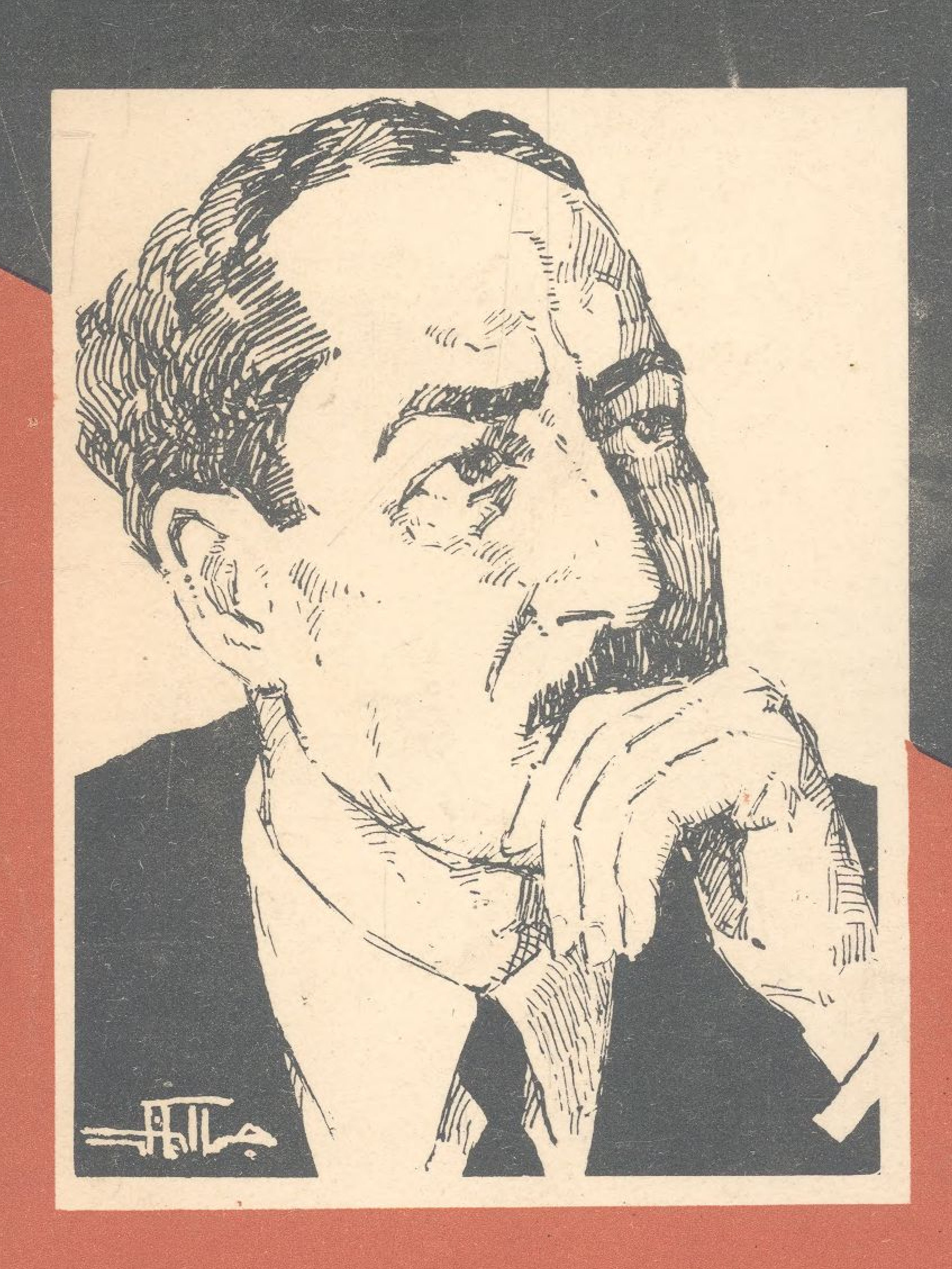
تأملات في السياسة





توفيق الحكيم

اهداءات ٢٠٠٢

أ/ثروت اباظة

القاهرة



تأملات في السياسة

بقلم توفيق الحكيم

مقدمة

بقلم أحمد بهاء الدين

عندما تفضل الاستاذ توفيق الحكيم ودعاني الى أن أكتب مقدمة قصيرة لهذا الكتاب .. وقعت في حيرة شديدة .

كيف أكتب هذه المقدمة ، ولم تمض على سنوات ، عندما كنت أجلس الساعات على مقعد خشبي قاس في دار الكتب أنتظر العامل الذي يحضر لي كتب توفيق الحكيم لأغرق في قراءتها مأخوذا مبهورا حتى يدق جرس الانصراف ؟؟ وعندما كنت ادخر مصروفي لكي اقتني نسخة خاصة بي من « عودة الروح » ؟ ..

ثم .. ماذا أقول في هذه المقدمة .. وقد أصبحت اليوم أخالف الاستاذ توفيق الحكيم في كثير مما يذهب اليه .. ربما في هذا الكتاب بالذات ؟ ..

وقبل أن أبت في هذه الحيرة برأي ، كنت قد غرقت في كتب توفيق الحكيم ، أخرجتها جميعا من مكانها في مكتبتي وأخذت أعبر سطورها مرة أخرى ، لا أذكر رقمها بين المرات التي قرأت فيها هذه المؤلفات من قبل .



ووجدتني مرة أخرى مع رموز شهرزاد ، وأبطال عودة الروح ، وجو يوميات نائب في الارياف .

ووقفت عند ملاحظة غريبة ..

لقد قضى توفيق الحكيم عشر سنوات هي « زهرة عمره » بين الرابعة والعشرين والرابعة والثلاثين تقريبا .. قضاها يكتب ويجرب .. ولا ينشر ! ..

كان قد تعلق قلبه بالمسرح تعلقا شديدا ، ووضع وهو طالب في الجامعة مسرحيات لفرقة عكاشة ، ولكنه بعد أن خبر المسرح المصرى أراد أن يصنع له شيئا . شيئا يرفعه الى مرتبة المسرح العالمى ، ومضى توفيق الحكيم يدرس ويقرأ ويحاول .. وينحت الصخر . وكانت أمامه المشاكل الكثيرة التى تتراكم أمام كل رائد من الرواد الذين يقتحمون أرضا جديدة . وقد كان المسرح والرواية أرضا جديدة على الأدب العربى . كانت أمامه مشكلة اللغة ، وكيف يجد أسلوبا موجزا بسيطا يلائم الحوار ، بدلا من أسلوب المقالات المطولة الذى كان سائدا . وكان أمامه أن يتقن الصنعة المسرحية ويضع يده على أسرارها ، وأن يعرف كيف يجذب متفرجا ليس له ماض طويل فى رؤية المسرح ، كيف يجذبه الى المسرحية من ساعة رفع الستار الى ساعة اسدالها . وكان أمامه بعد ذلك أن يضع فى مسرحياته معان كبيرة غير ما يبدو على سطح الحوادث . أن يضع فى أبطالها أفكارا لا مشاعر فحسب .

وتنقل توفيق الحكيم كثيرا بين القاهرة وباريس والريف المصرى البعيد ، عاش بين الفنانين والشعراء والرسامين فى مونمارتر وبين الفلاحين والجنود والخفر فى القرية المصرية . ولكنه ظل أينما ذهب يحمل فى قلبه ورأسه وحقائبه دراساته وتأملاته ومحاولاته لخلق مسرح مصرى ورواية مصرية .. وفن مصرى ..

عشر سنوات قضاها توفيق الحكيم ـ حقا لا مجازا ـ فى محراب الفن .. يكتب غير متسرع ولا متعجل ولا متلهف على النشر . عشر سنوات مضيئة كتب فيها أول مسرحية بالمعنى الحقيقى : أهل الكهف ثم شهرزاد .. غير : الزمار وحياة تحطمت والخروج من الجنة والشاعر ورصاصة فى القلب ..

وكتب فيها أول رواية واقعية مصرية « عودة الروح » •• ثم « يوميات نائب في الارياف » •

كل ذلك •• قبل أن يدخل اسمه الحياة الادبية بنشر « أهل الكهف » ، على استحياء شديد ، سنة ١٩٣٣ ••

أليس في ذلك درس لنا •• نحن شباب هذا الجيل ؟ ••

ان الشباب من أبناء هذا الجيل يريدون أن يصنعوا ـ باخلاص ـ أشياء باهرة • وأن يقفزوا بالانتاج الادبي والفني خطوات هائلة • ولكنهم لا يبذلون من أجل ذلك الجهد والاصرار اللازم لتحقيق ما يبتغون • والظاهرة التي يجب أن نعترف بها هي ما يسود من تعجل النشر وتعجل الشهرة وتعجل الكسب •• مما يجعل العمل الفني يخرج مبتورا ناقصا غير ناضج ، ويجعل النقد يبدو أحيانا في ثوب الرغبة في الهدم والتسلق واحداث الضجة فحسب •

ولا ينطبق هذا الكلام طبعا على الجميع • ولا هو ينفي جهود المخلصين ••

●●●

والانتاج الذى جاء به توفيق الحكيم فى هذه السنوات الاولى هو ـ فى رأيى الشخصى ـ أروع انتاجه على الاطلاق •• فهذه الاعمال الاربعة الكبيرة : عودة الروح ويوميات نائب فى الارياف وأهل الكهف وشهرزاد •• هذه الاعمال ما زالت هى القمة فى انتاجه كله • وما زالت هى التى تقترن باسمه قبل سواها • وما أنتجه بعد ذلك يدور فى فلك هذه الاعمال •• أو هو بمثابة « تطبيقات » مختلفة لها !! •

وسوف يذكر التاريخ الادبى أن ما أضافه توفيق الحكيم أساسا فى تطور الادب العربى قد أضيف فى هذه السنوات الاولى ، ألا وهو : الشكل الفنى للقصـــة الواقعية المصرية والمسرحية المصرية • فالى ما قبل ظهور توفيق الحكيم كانت القصة فى اللغة العربية سردا وليس عملا فنيا دقيقا ، كالبناء الهندسى •

واذا كان توفيق الحكيم قد هجر بعد ذلك تجربته الرائعة الاولى فى الرواية الواقعية المصرية •• فان هجره لها لم يقلل من قيمتها •• فقد ظلت مثلا يحتذيه الآخرون !! ••

والتهمة الاولى التي توجه الى توفيق. الحكيم ـ من الشباب بوجه خاص ـ هى أنه قضى السنوات الاخيرة معتصما ببرج عاجي ، لائذا بعقيدة « الفن للفن » •

وكلمة « الفن للفن » ـ في رأيي الشخصي أيضا ـ لا تعبر عن مذهب أو عن نظرية • ولكنها تعبر عن حالة نفسية فحسب •

هل يقبل أحد أن يقال ان هناك نظرية اسمها « العلم للعلم » مثلا ؟ •• وأن أصحاب هذا المذهب يرون أن يكون تحطيم الذرة لمجرد تحطيم الذرة ، لا لكى تؤثر هذه الذرة بعد ذلك في حياة الناس •• بالدمار اذا اتجهت الى الحرب ، وبالعمار اذا اتجهت الى السلم ؟ ••

لو قال أحد بشيء من ذلك لقيل عنه انه مخبول قطعا ! اذا فلماذا نصدق ان هناك نظرية اسمها « الفن للفن » ؟ •• وأن الفن بناء على ذلك يمكن أن يكون شكلا باهرا فحسب •• بلا موضوع ، أو مضمون ، أو قضية ؟ ••

هل يكون الفن أقل خطرا من العلم ؟ ••

كلا • فاذا كان العلم يوفر لنا راحة السكن وسرعة الانتقال وسهولة الاتصال وما الى ذلك من حاجات • فان الفن عليه أن يوفر لنا حاجات أعظم خطرا ، حاجات لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها مثل : الحرية • الشرف • العدل • المساواة •

ان العلم يقدم لنا الادوات التى يمكن أن نهيىء بها سعادة البشر ورخاءه • ولكن الفن يقوم بدور رئيسى فى رسم الاسلوب الذى تستخدم به هذه الادوات والغاية التى نستهدفها منها والمجتمع الذى نصنعه بها •

فالفن بالنسبة للتقدم ، وللعلم ، بمثابة العين التى ترى ، والنور الذى يهدى ••

فكيف يمكن أن توصف كلمة « الفن للفن » بأنها عقيدة أو نظرية ؟ ••

ولكن ، هاهنا سؤال : لماذا نجد بعد ذلك آثارا لا يمكن الا أن نصفها بأنها « فن •• للفن ؟ » ••

ما تفسير وجود هذه الاعمال الفنية التى تشبه الصواريخ •• نصفق لضوئها وألوانها لحظة ، ثم تنطفىء • ولا يبقى منها الا تسلية الدقيقة العابرة ؟ •

الخوض في معركة من معارك المجتمع وما قد يصيبه من أذى ..
الواقع أن الفنان الذى ينتج فنا للفن لا يفعل ذلك لأنه يؤمن بشيء اسمه الفن للفن .. ولكنه يفعله اما لأنه يخاف عاقبة واما أنه يجد تفكيره الاجتماعي غير متلائم مع تفكير عصره ولا صالح له ، فهو في كلتا الحالتين ينسحب من الميدان ، ويحتمي وراء كلمة « الفن للفن » ..
ومن هنا كانت هذه الكلمة ليست شعارا لعقيدة ما ، ولكنها مظهر لحالة معينة هي : الخوف .. أو العجز .
ان فنانا يخاف على رزقه أو أمنه أو سلامته لا يمكن الا ان يحتمي وراء الفن للفن ..
وان فنانا كأهل الكهف يحاول أن يعيش بأفكار راح عصرها منذ مئات السنين ، سرعان ما يكتشف الهوة التي تفصله عن قومه ، فيلوذ بهذا الكهف المظلم : الفن للفن !! ..
وقد كان بودلير اذا نشبت الثورة في فرنسا أصدر مجلة واقتحم المعركة بكل عنف ، فاذا أخمدت الثورة وضاق الخناق على الكتاب ، عاد يكتب عن الفن للفن !! ..
والاستاذ توفيق الحكيم فيما أعتقد ليس من حملة لافتة « الفن للفن » . بدليل اننا نجدله آراء في أغلب المسائل العامة ، من قضية المرأة الى نظام الحكم . نعم نختلف معه في كثير من هذه الآراء .. ولكن تلك قضية أخرى .

●●●

وهذا الكتاب الذى تقدمه « روز اليوسف » اليوم ، يكاد يجمع خلاصة وافية لكل آراء توفيق الحكيم السياسية ، أو العامة فهو هنا يقول رأيه صريحا في مسائل خطيرة .. وليحاسبه على هذه الآراء بعد ذلك من يشاء ..
وقد كتب توفيق الحكيم هذه المقالات في الفترة بين سنتي ١٩٤١ و١٩٤٦ .. وهى ست سنوات حافلة بالأحداث والتطورات ، التي نرى انعكاسها واضحا على هذه المقالات ..
فالجزء الاول منها كتب في أوائل الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت جيوش هتلر تغزو أوروبا وأفريقيا ، وعندما كان العالم مهددا بخطر العدوان النازى والارهاب الدكتاتورى .. معرضا للوقوع بين لحظة وأخرى تحت سلطان الظلام .. وفي

هذه المقالات نرى توفيق الحكيم يقف وقفة صلبة في وجه الطغيان ، ويكتب صفحات مشرقة عن الحرية والديمقراطية والاشتراكية والسلام .

وتمر هذه المرحلة ، وتتراجع جحافل الظلام أمام المقاومة الباسلة من شعوب أوروبا . وينتصر الحلفاء . ويكتب توفيق الحكيم في موضوع آخر ، هو : خيبة أمل الشعوب الصغيرة في أعقاب الحرب . والاطماع التي أسفرت عن وجهها في لندن وباريس ، تريد أن تحتفظ بالظلم القديم .

وبعد نهاية الحرب ، نرى توفيق الحكيم يكتب في نقد الحياة السياسية المصرية . محاولا أن يثبت زيف الديمقراطية التي كانت موجودة في ذلك الوقت .. نقدا عيبه أنه كان يصيب أحيانا الديمقراطية ذاتها ، لا الفاسد من مظاهرها فحسب .

●●●

وبصرف النظر عن الآراء التفصيلية الكثيرة التي قد أختلف فيها مع الاستاذ توفيق الحكيم . فان أول ملاحظة عامة على هذه المقالات هي : أن توفيق الحكيم ما زال يقف حتى الآن أمام نفس الأسئلة التي أثارها والمثل التي أقامها في تلك السنوات العشر التي سبقت الاشارة اليها ..

لقد كتب توفيق الحكيم « شهرزاد » منذ خمسة وعشرين سنة ليسجل « مأساة الشك في اضطراد التقدم الانساني في خط مستقيم » وكان السؤال الذي أثاره فيها هو : هل نتقدم .. أم ندور في حلقة مفرغة ؟ ..

وفي هذا الكتاب ، نرى توفيق الحكيم في نفس الوقفة أمام مشكلة العصر الحديث : الصناعة الكبيرة .. ينظر الى امكانيات التقدم التي تنطوي عليها ، ثم يرجع الى الشرور التي صاحبت نشأتها ، ثم لا يصل الى قرار حاسم ، فيوجه نفس السؤال : هل يضطرد التقدم الانساني في خط مستقيم ، أم يدور في حلقة مفرغة ..

وكأني به يميل الى الاعتقاد بأنه يدور في حلقة مفرغة . نرى ذلك في لمحات خاطفة ، مثل قوله انه لا أمل في منع الحروب اطلاقا ، وان الحرب قدر مكتوب على البشر .. وهو يأس لا يقره الكثيرون ، فان مزيدا من التأمل يصل بنا الى أن أمل العرب

أيام الجاهلية مثلا فى أن تتحد القبائل فى مجتمع واحد تسوده عقيدة واحدة • وفى أن يختفى قانون السطو والغصب والحروب ليحل محله قانون آخر • لا يمكن أن يقال أنه كان أكثر من أمل البشر الآن فى أن يسود المجتمع الدولى قانون آخر غير السطو والغصب والحروب • ومع ذلك فقد ذهبت الجاهلية على قدوم الاسلام • فكيف لا نأمل نحن اليوم فى أن تذهب الحرب ويذهب الاستعمار ؟ ••

وفى « أهل الكهف » أيضا •• سجل توفيق الحكيم « مأساة الصراع بين العقل الذى يشك والقلب الذى يؤمن » •• وفى هذا الكتاب أيضا ، نراه حين يشك فى اضطراد التقدم الانسانى يستطرد فيقول : « •• الحقيقة ان عقلى يشك ولكن قلبى يؤمن • ان قوة العقل الشك ، وقوة القلب الايمان ! » ••

هذا بالنسبة الى الاسئلة التى يثيرها •• أما بالنسبة « للمثل » التى يقيمها •• فأنت أيضا تراه واقفا أمام المثل الذى رسمه فى « عودة الروح » ••

ان « عودة الروح » هى أروع وثيقة فنية عن ثورة ١٩١٩ • وهى الثورة التى عاشها توفيق الحكيم وفهمها وسجن فيها ، وسجلها بقلمه •• وفى هذا الكتاب ، نراه بعد أن يتأمل الحياة السياسية الراهنة فى مصر يطالب أو يتمنى أن تعود أيام ثورة ١٩١٩ • وأن تعود مثلها وأخلاقياتها • رغم التغييرات الكثيرة التى طرأت على المجتمع المصرى وظروفه ومطالبه خلال هذه الفترة • فهو لا يريد ثورة جديدة ، بل يريد تكرار ثورة ١٩١٩ •• وهو ما يمكن أن يعتبر انفصالا عن حركة التاريخ •

هكذا يقف توفيق الحكيم أمام الاسئلة التى أثارها فى أول انتاجه •• لا يزعجه عن تأملها هدير الاعوام والاحداث خلال ثلاثين عاما كاملة !! •

واذا بحثنا فى هذا الكتاب عن لون توفيق الحكيم السياسى ، فاننا نستطيع أن نقول أنه ديمقراطى النزعة •• ولكنه بعد دفاع باهر عن الديمقراطية يختمه بقوله « اذا ذهبت الحرية فأجدر بالحر أن يموت » •• نراه يرجع خطوة فيقول :

« هل أنا كاتب ديمقراطى ؟ الحقيقة أنى لست ديمقراطيا بالمعنى السياسى لهذه الكلمة • أننى لا أستطيع أن أنتمى الى

الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيا أو حزبيا • لأنّ الحرية الفكرية والروحية التى هى كل مسوح المفكر الحر الحقيقى ، تمنع من الانخراط فى سلك حزب أو نظام قد يضطر للدفاع عنه بالحق أو بالباطل ! ان الذى أومن به اذن وأدافع عنه دائما هو الديمقراطية باعتبارها مبدأ انسانيا لا نظاما سياسيا •

« الكاتب الحر الحق هو الذى يبقى بعيدا عن الحركات الحزبية والسياسية ، كى يستطيع فى كل وقت أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل العليا الانسانية ، ولا يؤازر المذاهب والاشخاص الا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل• لذلك لم أستطع ان أغمض عينى عن بعض النظم السياسية المنتمية الى الديمقراطية يوم تطرق اليها الفساد وعبث بها الساسة المحترفون •

ثم يقول •• فى قصتى براكسا أو مشكلة الحكم « سخرية ببعض مظاهر الحكم الديمقراطى ، وسخرية ببعض مظاهر الحكم الدكتاتورى ، وليس فيها حل لمشكلة الحكم • لماذا ؟ لأنّ هذا ليس من مهمة الكاتب الحر • ان الكاتب الذى ينشىء مذهبا سياسيا يتمسك به ويكبل فكره بنصوصه ، مثله مثل الكاتب الذى ينضم الى مذهب سياسى قائم ، كلاهما قد فقد النظر الحر الى بقية المذاهب والاشياء ••

« الكاتب الحر فى نظرى هو الحكم النزيه فى حلبة اللاعبين • هو الذى يحصى الاخطاء بغير تمييز ولا تحامل • وهو الذى يفضح ستر الخارجين على اصول اللعب القديم » •

أيمكن أنّ نوافق على ذلك ؟ ••

ان توفيق الحكيم فى هذه السطور يرسم موقفه من السياسة رسما دقيقا • فهو لا يؤمن بمذهب سياسى معين محدد ، ولكنه يؤمن ببعض القيم مثل : الحرية • الفكر • الفضيلة ••

ولكن ليس معنى ذلك أنّ يصف الكاتب الذى يؤمن بعقيدة معينة بأنه ليس كاتبا حرا • ما دامت هذه العقيدة تدعو الى الحرية • وما دمنا متفقين على مسئولية الكاتب • فان أقصى درجات المسئولية بغير شك ، هى الالتزام بعقيدة معينة •• اذا وجد الكاتب طبعا العقيدة التى ترضيه ، التى يؤمن بها بعقله وقلبه معا •

وبعد •••

فقد كان الاستاذ توفيق الحكيم كريما عندما تفضل ودعانى الى أن أكتب مقدمة وأدفع بها الى المطبعة دون أن يراها •• واننى واثق أنه سيكون كريما حين يقرأ هذه المقدمة •• فيصفح عنها !

« أحمد بهاء الدين »

١

مصير الانسان الحر

هذه الكلمات ليست سوى صيحات ، لا أملك غير اطلاقها فى هذه الساعات التى لا يستطيع أحد بعد أن يتنبأ فيها بمصير الانسان الحر ٠

***

ان الظلام الزاحف على الانسانية يخيفنى ٠٠ انى لم أزل أتأمل تلك الكلمة التى قالها وكيل خارجية أمريكا « سمنر ويلز » منذ نحو عام : « ليس فى مقدورنا أن نتكهن بشىء عن احتمال العودة مرة أخرى الى ظلام القرون الوسطى ، على الأقل فيما يتعلق بشؤون الفكر والروح ٠٠ الخ » ، انى لم أزل أطرح على نفسى هذا السؤال : هل فى الامكان حقا أن يمحق الانسان ظلام بعد هذا الشوط الذى قطعه فى سبيل النور ؟ ٠٠

***

هل أصدق قول المفكر الالمانى « كيسرلنج » : ما الانسان الا مخلوق تتركز فيه قوى روحية وقوى أرضية ٠ جوهره العميق ٠ ذلك الذى قد يعد خالدا هو روح خالص ٠ ولكن هنالك حقيقة

تستوعى النظر ، هى أنه منذ ليل الازمان والاديان ما برحت تحض على اتباع تعاليم الروح ، فهل صادفت في ذلك غير نجاح قليل ، بينما كانت نوازع الارض والدم لا تفرض فقط سلطانها فرضا بل تقبل أيسر القبول في شيء من الخضوع الطبيعي ، هذه الحقيقة وحدها تثبت لنا أن ثمانين في المائة من المخلوق البشري تتألف من العناصر الارضية التي تدخل في نطاق العالم الحيواني والنباتي » .

***

ما أقسى هذا الكلام على من يؤمن بالتقدم الانساني . ينبغي مع الأسف أن نتوقع اذن في كل حين ثورة هذه الثمانين في المائة على العشرين الباقية .

***

تتمثل لذهنى أيضا صورة رسمها « جيمس روبنسون » المفكر الامريكي ، لتطور البشرية ومدى انتقالها من عهد الى عهد ، فقد افترض أن حياة الانسانية منذ عصورها الاولى الى اليوم (وهي التي تقدر أحيانا بخمسمائة ألف سنة) تبلغ خمسين عاما فقط ، رغبة في التبسيط . فماذا وجد ؟ وجد أن تسعا وأربعين سنة من هذه الخمسين قضتها البشرية في حياة الصيدالاولى . ولم تبلغ في نهايتها ، من حيث المعرفة والادراك ، الا درجة تمكنها من استئناس بعض الحيوان ونسج بعض الخشن من الثياب . أما في السنة الاخيرة الباقية من عمر الانسانية ، فقد كان ينبغي أن يمضي منها أيضا ستة شهورقبل أن تخترع الكتابة التي تم باختراعها وضع أساس من أسس الحضارة . ثم ثلاثة شهور أخرى للوصول بالادب والفن والفلسفة الى تلك القمم التي بلغناها ، ثم شهران للحياة في ظل المسيحية . ولم يتطلبظهور الطباعة غير ليلة واحدة . وآلة البخار غير أسبوع . ويومان أو ثلاثة لتخوض البواخر عرض البحار وتقطع القطر شاسع البقاع . ولم يبق بعد ذلك غير يوم واحد استكشفت في ليلته البارحة أعاجيب الكهرباء . وأخيرا لم تبق غير ساعات معدودات كانت كافية لحذق الملاحة في الجو وتحت الماءواستخدام أحدث المخترعات لاثارة حروب عظمى تتكافأ مع تلك الوسائل الجديدة الهائلة » ..

ولأتم قول هذا العالم الامريكي قائلا : حروب عظمى قديرة أن تدمر الانسانية وتعيدها من جديد الى حيث كانت منذ عام ·

***

هذا التقدير العجيب لعمر المدنية الحقيقية في حياة الانسانية ينبغي أن يملأنا قلقا على مصير الحضارة · انها اذن ليست تراثا أصيلا كما نظن · انها ليست ملكة متأصلة فينا كما نحب أن نتصور · انما هي حدث جديد لم يقع في حياتنا البالغةالخمسين الا منذ ستة شهور · أفيستغرب اذن اذا عصف القدر بهـذا الحدث وأرجعنا الى حيث كنا منذ عام على الأقل ·

***

نعم · حتى حياتنا اللامعة خلال هذه الشهور الستة الاخيرة ليست في مأمن من طغيان ذلك الخضم الهائل من عشرات الاعوام السابقة · ان ريح تلك الاعوام المظلمة ما تفتأ في كل لحظة تهب على هذه الشمعة الضئيلة التي تنمو في ضوئها المرتجف حضارتنا الناشئة · آه · ان قوة الارض والدم لمخيفة حقا · إنها لتستطيع أن تجذبنا اليها في كل حين كلما أردنا ارتفاعا ! ··

***

يحلم العلم الحديث أحيانا بذلك الاختراع الذى يخرجنا عن جاذبية الارض ، لنلحق بالكواكب الاخرى · أما ينبغي له أن يفكر قبل ذلك في اختراع آخر أعظم وأجدى على الانسان : ذلك الذى يخرجنا عن جاذبية الارض والدم في عالم تركيبنا الحيواني ، لنلحق بالانسانية العليا التي يتصورها الفكر المجدد ، ويحسها الروح الطليق ؟ ··

***

ما دمنا نعيش تحت سلطان جاذبية الماضي الهائل : جاذبية تسع وأربعين سنة أو (٥٤٩٠٠٠ سنة بالحساب شبه الحقيقي) : حياة حيوانية تعيش على الفتك والصيد وشريعة الغابة ، فكيف نأمل بهذه السرعة في حياة أرقى تسودها شريعة غير شريعة الغابة ؟ ··

***

يقول « ألدس هكسلي » : لا أحد يطلب اليك أن تكون شيئا آخر غير مجرد انسان ، أي لا ملاك ولا شيطان · انسان ، أي

ذلك المخلوق الذى يمشى بمهارة على حبل مشدود ، عن يمينه العقل والفكر والضمير ، وكل ما دخل فى نطاق العالم الروحى ، وعن يساره الجسد والغريزة والدم وكل ما دخل فى نطاق العالم الحيوانى • التوازن هو كل المطلوب • وهو أمر عسير المنال •

***

حقا هذا التوازن عسير المنال • كم من الملايين وكم من الاجيال تسقط فى الهاوية اليسرى • أما الهاوية اليمنى فلم يقع فيها غير قليل من الانبياء والقديسين والفلاسفة والشعراء •

***

فى تاريخ الانسانية عهد صغير مزدهر ، هو حقا من مفاخر الانسان • ذلك هو عهد الاغريق • أترى الاغريق هم الذين استطاعوا أن يمشوا فى توازن عجيب فوق الحبل المشدود ؟ •

***

ربما كانت فكرة التوازن لا يتميز بها العهد الاغريقى وحده • فالحضارة الاسلامية فى عصورها الزاهرة هى خير مثال يقدم للتوازن العجيب فوق هذا الصراط المستقيم •

***

ان معجزة الاغريق ، فى الواقع ، هى أنهم لاول مرة فى تاريخ البشرية ، حاولوا التخلص من جاذبية الماضى • اذا ذكر الاغريق ذكر عهد ظهور التفكير الحر ، والتأمل المجرد ، أى ذلك التفكير الذى لا تحده تقاليد ولا سلطات ولا أديان ولا حتى لغات قديمة • كان « بيرون » يقول عن الاغريق : لم تكن لديهم عصور قديمة للمعرفة ولا معرفة للعصور القديمة •

***

ان النوع البشرى محافظ بطبعه كما يرى روبنسون : « فهو لا يفتأ يضع لنفسه قيودا ، هى التى أقعدته فى طور البربرية كل هذه الاجيال الساحقة التى عاشها على الارض • بل هى التى ما تزال تعمل على استمرار بعض مظاهر البربرية حتى فى مجتمعنا الحديث • فالرجل المحافظ هو على وجه عام رجل أدنى من غيره الى الحالة البربرية الاولى اذا كان فى التاريخ اذن شعب غير « محافظ » فهم الاغريق • انهم شعب « الحرية » المختار ! ••

ان العهد البشرى بلغ فى عهد الاغريق اكتمال تألقه ، لانه تفتح لهواء الشك • ان « الشك » هو هواء العقل الذى يتنفس به • لاول مرة استطاع الانسان حقا أن يدع هذا الهواء يعبث قليلا برفات تقاليده المقدسة • ولاول مرة استطاع الانسان حقا أن يخرج بتفكيره قليلا عن نطاق جاذبية الماضى ، ليتأمل ويخلق بعيدا عن سيطرة الايمان بالماضى •

***

على أن العجيب فى الامر ، هو أن البشرية التى عرفت هذا التألق الفكرى ، استطاعت أن ترجع بعد ذلك الى ظلام القرون الوسطى • وتركت فضاء « الشك » لتدخل من جديد ، حظيرة « الايمان » • أترى حياة الانسانية كحيان الانسان ؟ أتراها مثله تخرج من النهار الى الليل ، ثم تعود الى النهار من جديد ، ثم تدخل فى الليل مرة أخرى ، وهكذا الى نهاية الدهور ؟ •

***

نعم ، بعد نهار الاغريق جاء ليل القرون الوسطى • لكن ••• ليس كل ليل ظلاما ، فقد يخيم الظلام على أول الليل ثم يطلع القمر وتتصاعد الاحلام من جوف القلب فتملأ الوجود جمالا ونورا من نوع آخر ، كذلك القرون الوسطى ، لم تعرف الظلام الحالك الا فى أول عهودها ، ثم تأججت العقيدة الدينية فى النفوس واستيقظ القلب فأبدع جمالا وشعرا له مكانه الى جانب الجمال الذى أبدعه العقل فى نهار الاغريق •

***

وقبل نهار الاغريق ماذا كان ؟ كان ليل مصر القديمة المقمر الجميل • كانت حضارة عجيبة كأنها أحلام العمالقة ، خرجت هى الاخرى من وحى القلب وحرارة العقيدة والايمان •

***

وبعد ليل القرون الوسطى ، ماذا حدث ؟ ظهر من جديد فجر عصر النهضة وأخذ يتألق بضوء العقل • انها شمس الاغريق طلعت مرة أخرى فى عصر النهضة ، فما عهد احياء العلوم وبعث التفكير الاغريقى الا نهار جديد طلع بعد انصرام الهزيع الاخير المقمر من ليلة القرون الوسطى •

أهى أستار تتعاقب على مسرح الوجود الدائر ، تلك القوى الخفية التى نسميها الغريزة والقلب والعقل ؟ أتراها تلعب فى حياة الانسانية الدور الذى يلعبه الظلام والقمر والشمس فى حياة الانسان اليومية ؟ ٠٠

***

هؤلاء هم بالضبط أبطال مسرحيتى « شهرزاد » فالظلام فالظلام هو « العبد » والقلب هو « قمر » والعقل هو «شهريار» وان حركتهم حول « شهرزاد » لهى حركة الانسانية كلها حول الطبيعة ٠

***

هل الانسانية اذن تدور دوران الفصول ؟ لقد أجاب « شهريار » : « كل شيء يدور ٠ تلك هى الابدية ٠ يا لها من خدعة ! تسأل الطبيعة عن سرها فتجيبنا باللف والدوران ! » نعم ٠ انها تدور دوران اليوم الكامل : ظلام وقمر ونهار ، ثم ظلام وقمر ونهار ٠٠ وهكذا دواليك الى نهاية الدهور ٠

***

ان فكرة التقدم العقلى المطرد هى من أوهام العقل ٠ انها سراب شمس العقل فى صحراء آمالنا الواسعة ٠ ان الخط المستقيم لا يعرفه غير العقل ٠ أما الطبيعة فلا تعرف غير محيط الدائرة ٠

***

لو عرف الانسان نهارا لا ليل له يمتد بضعة أعوام ، لعرفت الانسانية مثل هذا النهار فى صورة حضارة فكرية ممتدة الى آلاف الاعوام لا يعترضها ظلام الغرائز ولا أحلام الايمان ٠

***

هذا النهار الطويل للانسانية لو وجد لكان محرقا لكثير من فضائل الانسان ٠

***

حضارة اليوم الحديثة هى من غير شك نهار للانسانية ، نهار بزغ فى عصر النهضة واحياء العلوم ٠ واستمر متألقا بكل أشعة العقل الانسانى ٠ انه النهار الثانى بعد نهار الاغريق الاول ٠

من العجيب أنه فى كلا النهارين بدا مظهران من مظـاهر التحرر لا للفكر وحده بل للمجتمع • ففى نهار الاغريق عرفت الانسانية الديمقراطيةوفى نهار العصور الحديثة عرفتالانسانية حقوق الانسان •

***

التحرر الذاتيوالتيقظ الاجتماعى ، أليس ان الليل مقترنبالنوم والاحلام والاستسلام ، والنهار مقترن باليقظة والشعور بحقوق الذات ؟ ••

***

ما بعد حضارة اليوم الحديثة ؟ ما مصير هذا النهار ؟ أترى مصيره مصير كل نهار ؟ •

***

هل نستطيع أن نتبين فى الأفق جحافل الظلام المغيرة على هذا النهار ؟ •

***

أولئك الشعراء الذين قرنوا الظلام بالجحافل لا شكمصيبون لا شيء يستطيع اطفاء مصباح الفكر غير يد القوة المادية • هكذا بدأ النور فى الفتور منذ اقتربت من مصباح أثيناكف « فيليب »

***

فى ليل الانسانية المظلم أو المقمر ، لم يعرف قط مثل هذا يقول الباحث الفرنسى جان روستان : اذا قدر لهذه الحضارة أن تتحطم غدا عن آخرها لكان على الانسان أن يعيد بناء كلشيء من جديد ، مبتدئا بما بدأ به منذ نيف ومائة أو مائتين ألف من الاعوام • فكل ما قام به على مر الدهور من أعمال وما عاناه من جهود وما قاساه من آلام لا نفع فيه ولا غنى • وهنا الفرق الهائل بين حضارة الانسان وحضارة الحيوان • ان شرذمة من النمل المنعزل عن العشيرة فى امكانها أن تنشىء عشيرة أخرى تامة التكوين • لكن شرذمة من الآدميين انعزلوا عن البشرية لا يستطيعون أن ينشئوامجتمعا الا فى صورته البربرية الاولى • ان حضارة النمل منطبعة فى صميم خواص الحشرة • أما حضارة

الانسان فهى ليست مستقرة فى صميم طبيعة الانسان • بل هى مستقرة فى صميم طبيعة الانسان • بل هى مستقرة فى خزائن المكتبات العامة وقاعات المتاحف ونصوص الشرائع •• » •

***

من المحتمل اذن أن تدك القنابل هذه المتاحف والمكتبات وأن تعبث يد القوة المادية بالشرائع ، وأن تضع كفها على أفواه الناطقين بالعلم ، وعلى أبصار الباحثين عن الحقيقة ، فاذا حضارة الانسان قد تلاشت ، واذا البشرية تعود سيرتها البربرية الاولى • أو لم يحدث بالفعل منذ قليل أن حرقت الكتب والمؤلفات وطرد العلماء والمفكرون (اينشتين وفرويدومان الخ ••) ؟ •

***

مهما تكن الاسباب والظروف ، فان فى مجرد امكان حدوث ذلك فى هذا العصر لنذيرا واشعارا بامكان عودة الظلام •

***

الانسان مخلوق مؤمن بالطبع • فى كل مراحله نرى حب التقديس • فالوثنية تقديس القوى الارضية • والاديان السموية ، تقديس القوى الروحية ، والعلم الحديث تقديس القوى الفكرية •

***

والاسراف فى الايمان يؤدى الى الطغيان ، والطغيان الى الانهيار • لقد زلزل العهد الوثنى طغيان الكهنة والتيجان • والعهد المسيحى طغيان الكنيسة ، والعهد العلمى الحديث طغيان الصناعة الكبرى •

***

ان (الصناعة الكبرى) هى « كنيسة العلم الحديث » •

***

لقد أرانا التاريخ كيف ان طغيان الكهنة والتيجان فى الارض جعل الانسانية تلتمس الخلاص والحرية فى السماء • وكيف أن طغيان الكنيسة باسم السماء قد جعل الانسانية تلجأ الى الخلاص والحرية فى نور العقل والعلم البشرى • بقى أن نعرف أين الخلاص من طغيان كنيسة العلم الحديث : الصناعة الكبرى ؟ •

***

ان كنيسة العلم الحديث بكرادلتها الرأسماليين لتتفتح أبوابها على جهنم الغرائز الاولى • نعم • نحن فى نهاية الدائرة • أسوف تدور دورة أخرى من جديد ؟ ••

***

يقول العالم الاقتصادى « ر • هـ • تونى » : ان كارثة حضارتنا اليوم ليس مرجعها كما يظن الكثيرون سوء توزيع الانتاج الصناعى • بل مرجعها الصناعة نفسها ، الصناعة التى تبوأت مركزا يطغى على كل شأن من شؤون البشر • ان هـذه الحمى الاقتصادية • سوف تبدو للاجيال القادمة خليقة بالرثاء ، كما تبدو لنا اليوم حمى المعارك الدينية فى القرن السابع عشر •

***

انه لمن المخجل كما يقول « جيمس روبتسون » : أن تخضع اليوم الحياة كلها لمقاصدها المادية على النحو الذى كان عليه أجدادنا المتوحشون يوم عاشوا فى طور التكالب على ثمار الاثمار وجذور النبات وجلود الحيوان » •

***

حقا • لم يعد المكان الاول فى حياة البشرية للقيم الروحية • بل لم تعد للقيم الفكرية ذاتها ذلك المكان • انما القيم الاقتصادية هى اليوم كل شىء • القيم الاقتصادية كانت هى أيضا كل شىء فى حياة القبيلة الاولى المتوحشة •

***

فلنستمع كذلك الى قول « كيسرلنج » : « الحظ البارز والمظهر الغالب للعصر الحاضر هو « الاقتصاد » أى « الغذاء » أى « مطالب الارض والدم والجنس والبيئة » • أى ان كل شىء اليوم خاضع للشطر « غير الروحى » للكائن البشرى •• هذه الحضارة ماكانت تستطيع أن تنتهى الا الى هذه النهاية « غير الانسانية » ما دامت تؤدى الى هذه الصورة المخيفة الى سيادة الآلة على الحياة ، والى طغيان الحساب والارقام • والى تقويض كل سلطان الا سلطان الحكم والعدد •• ان روح هذا العصر (الصناعي الاقتصادى) هى روح الكتل من الدهماء والسواد • وعصر السواد والدهماء هو فى الحقيقة عصر الزعماء • فالكتل لا تعمل أبدا بذاتها • اذ كلما كثر العدد احتاج الامر الى تنظيم ومنظمين • وأصبح

المنظم ، أو الزعيم ، هو القابض على زمام القطيع ، وهكذا تمنح السلطات شبه المطلقة لمن ينظم الملايين • وهؤلاء الزعماء المنظمون هم دائما من طراز « المروضين » لا من طراز « القادة الروحيين » والمروض هو من يؤثر في تابعه عن طريق « الايحاء » مجبرا اياه على طاعته دون أن يشعره انه قد سلب ارادته ••

***

نحن اذن في طريق العودة الى المجتمع البشرى الاول الوثنى • حيث كانت الجموع تخضع لسلطان الرجل القوى الذى يستطيع تخدير أحلامها والتأثير في أعصابها •

***

ما دمنا في عصر الزعماء (المروضين) فلن يكون هنالك محل للكلام في الحرية • لأن المروض سجان قبل كل شىء •

***

هنا السر في أن الزعماء المروضين يضطهدون (الاديان السماوية) لانهم يريدون حبس جموعهم داخل تلك الحظيرة التى يسهل فيها التأثير في أعصاب القطعان : حظيرة الغرائز بسياجها المفتول من (الوطنية والجنس والدم) • ولما كانت الاديان تحارب الغرائز وتسعى الى اطلاق الناس من هـــذه الحظيرة الى فضاء الانسانية والاخاء الآدمى ، فقد عدها المروضون أخطر خصم لمآربهم •

***

هنالك سبب آخر لرغبة الزعماء المروضين في صد جموعهم عن الاديان : انهم لا يريدون لجموعهم أن تقدس شيئا آخر غير الزعيم • ان شخص الزعيم هو الذى حل وينبغى أن يحل محل الدين في قلوب التابعين • وتلك هى العودة الى الوثنية •

***

كذلك يمقت الزعماء المروضون العلماء والاساتذة والفلاسفة وأصحاب التأمل الطليق والفكر الحر ممن يدينون بمبدأ (العلم للعلم) أو (العلم للانسانية) ، ويرونهم غير جديرين بالبقاء الا اذا خضعوا لمبدأ (العلم للوطن) أى العلم في خدمة الجيش والعسكرية والاستعباد وسيادة الجنس والدم •

***

لقد سألني سائل ذات مرة عن مبدأ (العلم للوطن) فقلت :
« لا يمكن أن يكون العلم للوطن ولا لشيء آخر في هذا الوجود انما العلم لنفسه . فهو المعرفة الخالصة والرغبة المحرقة فى استجلاء كنه الاشياء . وان العلم اذا اتخذ له غرضا غير نفسه تغيرت فى الحال صفته ولم يعد يسمى علما ، مهما يكن الغرض الذى يتجه اليه نبيلا . فالعلم قبس من نور الله . وليس لله غرض الا ذاته المطلقة .

ولكن تطبيق العلم ، أو العلم التطبيقى ، شيء آخر ، فان للوطن والصناعة والتجارة .. الخ .. أن تستفيد من نتائج العلم وتستخرج منها المنفعة التى تريدها . فالعلماء الحقيقيون لا يطبقون العلم ، انما يعيشون حياتهم للمعرفة المجردة لايبتغون من ورائها غيرمجرد الدنو منها ، تلك لذتهم الكبرى ، أما رجال الاعمال الذين يأتون بعد ذلك لاستغلال نتائج هذا العلم فليسوا من العلماء وان درسوا العلم دراسة عميقة وان للعلم ككل شيء فى هذا الوجود أوقات علو وأوقات انحطاط ولاينحط العلم الا فى وقت ترغمه فيه قوة غاشمة على السير فى طريق مرسوم لمصلحة وطنية أو مالية : فالعلم طائر حر كالشعر . ومن قرأ تعريف (اينشتين) للعالم الحقيقى أدرك تمام الادراك أن حياة العلم لا تكون الا باطلاقه فى جو الحرية المطلقة . والعلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا . لان الوطنية هى الانانية فى المجموع والانانية عمياء ، والعلم هو البصر المنزه بحقيقة الاشياء . فمن أراد من العلم أن يعيش بنصف عين كى لا يرى غير مصلحة دولة واحدة وجنس واحد هو من غير شك قد مسخ (العلم) (قردا) يمشى ويرقص تحت عصا مروضه .

اينشتين

***

كل فكرة متصلة بفكرة (الدولية) متجهة الى (الانسانية) مبشرة بالسلام ، حاضة على (اللاعسكرية) هى خطيئة الخطايا

فى أعين الزعماء المروضين .

***

تلك هى أعظم صدمة هزت نفسى فى السنوات القلاقل التى تلت الحرب الكبرى الاخرى ، لقد كنت ممن يؤمنون باطراد التقدم الانسانى ، لقد كنت أتابع وقتذاك آمال الساسة والكتاب فى جمعية الامم والسلام ، وأطالع آراء ماركس وتلاميذه فى (الدولية) و (اللاعسكرية) . لقد كنت غارقا أنا أيضا فى تلك الاحلام التى نسجها لنا هداة البشر وقادته الروحيون من الرسل والشعراء والمفكرين ، لقد كنت موقنا بأن الآوان قد آن عقب تلك الحرب لزوال الحواجز بين الامم والامم ، وانقضاء عهد القبائل الوحشية المتنافرة التى يسمونها اليوم (دولا) تغير احداها على الاخرى ، مدفوعة بمطالب الارض والدم والجنس . واتجاه البشرية أخيرا الى تحقيق ذلك المجتمع الانسانى الأعلى الذى يجعل من سكان هذا الكوكب أخوة أحرارا ، لقد ظننت أن تلك الحرب العظمى بفظائعها ومخازيها قد ردعت البشر ، لكن .. وأسفاه ! فوجئت بما هالنى : لقد ارتدت البشرية بغتة الى الوراء ، واذن من كنا نحسبه انسانا متحضرا آخذا بأسباب السمو قد عاد يصيح صيحات الغابة . معلنا العودة الى غرائز الدم والجنس ، وخفت صوت القائلين (بالدولية) و (اللاعسكرية) . وارتفع صوت الناعقين بشريعة القوة المادية وحق الاقوى فى سحق الآخرين وسيادة العالمين .

***

عجبا ! أترى الانسانية لا تتقدم فى حقيقة الامر ولا تتأخر . أتراها حقا تدور فى تلك الحلقة المفرغة : غريزة وقلب وعقل ثم غريزة وقلب وعقل .. الخ .. وهكذا فى حركة دائمة كحركة الكواكب فى مجموعاتها الشمسية ! فى ذلك الوقت تيقظت فى نفسى فكرة قصتى (شهرزاد) . (شهرزاد) هى مأساة الشك فى اطراد التقدم الانسانى فى خط مستقيم .

***

اذا كنت أشك فى التقدم الانسانى ، وأرى أن دورة الانسانية تسير بمقتضى قانون شبه فلكى لا ينحرف قيد شعرة كقانون الشمس والقمر والظلام ، فأى جدوى فى نشر هذه الصفحات

وفي اطلاق الصيحات ؟ ..

***

الحقيقة أن عقلي يشك ولكن قلبي يؤمن ، ان قوة العقل الشك . وقوة القلب الايمان ، والانسان هو الفريسة التي تتصارع فوق جسدها هاتان القوتان . ان روح « المأساة » هي الصراع . ولقد أدرك شعراء المآسي الاغريقية أن أروع صراع هو ذلك الصراع القائم دائما بين الانسان وتلك القوى العليا الخارجية التي يسمونها « القدر » و « الآلهة » .

أما أنا فقد رأيت مأساة الانسان والانسانية في ذلك الصراع الدائم بين تلك القوى الداخلية : العقل والقلب . لذلك كتبت قصتي « أهل الكهف » ، « أهل الكهف » هي مأساة الصراع بين العقل الذي يشك والقلب الذي يؤمن .

***

نعم ، ان قلبي يشك ولكن قلبي يؤمن ، ما من رجل أحب الانسانية استطاع لحظة أن يشك في امكان تقدمها وسموها ، اني أعتقد أنها تتقدم ، ولكن مثل تقدم المجموعة الشمسية . كل كوكب فيها يدور حول نفسه وحول الشمس ولكن المجموعة كلها تسير مع ذلك في فضاء اللانهاية .

***

نعم . لقد لبثنا حقيقة في حياة الصيد (٤٤٩٠٠٠) سنة ، ولكن أي خطوات هرقلية خطوناها بعد ذلك في القرون القليلة الاخيرة ! ان سلطان الظلام يهددنا من آن لآن ، ولكن القيم التي كسبناها قد كسبناها . ان الحرية والجمال الروحي والفني والفكر الطليق وحقوق الانسان ، كل أولئك أشياء لا يمكن للانسانية أن تتنزل عنها أو تنساها ، قد تعصف بها حينا بعد حين عواصف القوة الارضية ، ولكنها لن تستأصل جذورها التي تنمو وتمتد في أعماق النفس البشرية .

***

علينا اذن نحن جنود القوى الروحية والفكرية أن ننشر الصفحات وأن نطلق الصيحات ، كلما شنت علينا الغارات جيوش القوى الارضية والحيوانية .

٢

دفاع القوى الروحية والفكرية

منذ أدركت أن الحرب حرب القوى الارضية ، وان السلطان سلطان الظلام ، وأن الامر للزعماء المروضين ، رأيت الدفاع منوط بالقوى الروحية والفكرية ، وسلطان النور ، والقادة الروحيين .

***

على أن الذى هالنى حقا هو ذلك الأثر الذى أحدثه طغيان القوى الارضية فى بعض رجال الروح والفكر أنفسهم ، عند ذاك بادرت بنشر تلك الكلمة التى عنوانها (فيران السفينة) موجهة الى أولئك الذين كانوا البارحة يتشدقون بذكر النور والحرية والفكر والمدنية الخ .. فلما هزت يد القوة البربرية هذه الهياكل ، هرعوا مذعورين الى الجانب الآخر يمجدون القوة الغاشمة ويعبدون الطغيان ، هؤلاء الذين خدعونا وخدعوا أنفسهم يوم لبسوا مسوح المؤمنين بالقيم العليا للانسانية ، فاذا هم فيران فى سفينة الحضارة والحرية يمرحون فى أرجائها وهى بخير ، فلما شموا ريح الخطر انسلوا يبغون الفرار منها ولو على ظهر حطامها ، ثم ها هم أولاء يقفزون الى سفينة القرصان .

يتخذونهم آلهة ومثلا عليا ، ويضعون تحت أقدامهم عين الازهار التى جعلوها من قبل على هام تماثيل الحرية المجيدة ، الى أولئك الخارجين على قوى الروح والفكر أؤكد عقيدتى الدائمة فى هذه الكلمات : (انى أزدرى وسأزدرى دائما القوة الوحشية فى ذاتها • وانى أدعو وسأدعو دائما الى القوة الفكرية والمعنوية التى تنتج القوة المادية الخصبة الخيرة الكفيلة بتنمية مواهب الانسان وفضائله وضمان حرياته وحقوقه وتمكين النوع البشرى من الاستمرار فى الرقى ! فى سبيل هذا وحده أعيش وأعمل كما يعيش جنود الفكر والروح ويعملون • وانى أعلن هـذه العقيدة ولى الشرف العظيم أن أموت يوما من أجلها • وأن أغرق معها اذا غرقت • فلا خير فى صاحب فكرة أو عقيدة لا يموت بموتها) ••

***

لقد تمنيت فى نفسى لو أن فى المقدور توحيد صفوف رجال الفكر والروح فى كل شعب وأمة • فأمام كتل الظلام يجب أن تقف كتل النور • من أجل ذلك نشرت نداء الى رجال الفكر أقول فيه : لا ريب أن رجال الفكر فى مصر قد تأملوا مليا تلك الخطبة التى ألقاها (سمنر ويلز) عند انتهاء المؤتمر العلمى للأمم الامريكية مشيرا فيها الى ليل العصور الوسطى وفجر عصر النهضة وما تبعه من حركة احياء العلوم ، الى أن قال : ليس فى مقدورنا أن نتكهن بشىء عن احتمال العودة مرة أخرى الى ظلام القرون الوسطى ، على الأقل فيما يتعلق بشؤون الفكروالروح ، فى بلاد أصبح البحث الحر فيها مستحيلا •• الخ ، ثم تمنى أن يزول شبح هذا الخطر الداهم على الحضارة ، ودعا الولايات المتحدة الى واجب الذود عن مدنية تدين لها بخير ما عندها ، هذه الصيحة القلقة على مصير الفكر المطلق ، لا بد أن يكون لها صدى عميق فى نفوس مفكرينا ومفكرى الشرق الباعث لحضـــارة البحر الابيض ، ولئن كان صوت أقدام القوة الوحشية وهى تسحق الأمم الحرة لم يزعج بعد رجالنا السياسيين المتنابذين ، فان نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل أن يوحد جهود رجال الفكر وأن ينهضهم متسـاندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم فى وضع أحجارها الاولى •

فالى اخوانى المفكرين والادباء أوجه هذا النداء ، وان العبرة التى تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد ، وارتفاع أصواتهم فى صيحة واحدة قد يكون لها أعظم الأثر فى توحيد صفوف أخرى طالما انتظرتها البلاد .

***

فى اليوم التالى نشرت الصحف اليومية مقالا طويلا جاء فيه : « ونحسب دعوة الكاتب جماعة المفكرين الى الدفاع عن الحرية الفكرية ضد الدكتاتورية .. قد جاءت ممن كان آخر الذين ينتظر منهم الحماسة الديمقراطية والحريات المقررة فى الدساتير لأنه سبق أن طعن فيها وتحامل عليها .. الخ » .

***

وهذا صحيح ، على أنى بعثت الى هذه الجريدة أقول : « انى يوم انتقدت الديمقراطية ، لم أفعل أكثر من أولئك الكتاب الديمقراطيين الذين هبوا فى فرنسا وانجلترا يحملون على بعض مثالب هذا النظام مشبعين بروح الرغبة فى علاج الداء وتقوية الضعف ، على أن كل طعن وكل نقد لأى مقصد من المقاصد ينبغى أن يزول فى الحال . وقد زال فعلا عندما بدا للجميع أن الديمقراطية باعتبارها مبدأ انسانيا مهددة فى صميمها بالزوال ، وان شبح الطغيان القائم بدا فى الأفق ينذر الناس بأن أفواههم ستكم ، وان حق تفكيرهم سيلغى بعداليوم ، وانهم محكوم عليهم أن يعيشوا طول الحياة آلات وأدوات تتحرك بمشيئة طاغية ، هنا تتلاشى الخلافات والانتقادات ولا يبقى لكل رجل حر أو صاحب قلم وفكر الا أن ينهض ذائدا عن الديمقراطية ، ناسيا الى حين مآخذها ، فهى النظام الوحيد الذى يستطيع أن يعيش فى ظله فرد ذو كرامة ، واذا هبت الحرية فأجدر بالحر أن يموت .

***

هل أنا كاتب ديمقراطى ؟ الحقيقة انى لست ديمقراطيا بالمعنى السياسى لهذه الكلمة ، انى لا أستطيع أن أنتمى الى الديمقراطية باعتبارها نظاما سياسيا أو حزبيا . لأن الحرية الفكرية والروحية التى هى كل مسوح المفكر الحر الحقيقى تمنع من الانخراط فى سلك حزب أو نظام قد يضطر الى الدفاع عنه بالحق وبالباطل . انى لا أستطيع أن أدافع قط عما أعتقد أنه

الباطل . ولا أستطيع أن أخدم شيئا قط غير ما أعتقد أنه الحق ، وهو لن يكون الا فى المبادىء . المبادىء العليا الخالدة البعيدة عن الاشخاص الزائلين . ان الذى أومن به اذن وأدافع عنه دائما هو الديمقراطية باعتبارها مبدأ انسانيا لا نظاما سياســيا . الديمقراطية الموجودة فى قلب كل انسان يقدر معنى « حقوق الانسان » ومعنى « الحرية » و « الكرامة الآدمية » .

***

الكاتب الحر الحق هو الذى يبقى بعيدا عن الحركات الحزبية والسياسية كى يستطيع فى كل وقت أن يدافع بمطلق الحرية عن المثل العليا الانسانية ولا يؤازر المذاهب والاشخاص الا على قدر احتفاظها بروح هذه المثل .

***

لذلك لم أستطع أن أغمض عينى على بعض النظم السياسية المنتمية الى الديمقراطية يوم تطرق اليها الفساد وعبث بهـا الساسة المحترفون .

***

فى قصتى « براكسا أو مشكلة الحكم » سخرية ببعض مظاهر الحكم الديموقراطى ، وسخرية ببعض مظاهر الحكم الدكتاتورى . وليس فيها حل لمشكلة الحكم . لماذا ؟ لأن هذا ليس من مهمة الكاتب الحر .

***

ان الكاتب الذى ينشىء مذهبا سياسيا يتمسك به ويكبل فكره بنصوصه . مثل مثل الكاتب الذى ينضم الى مذهب سياسى قائم كلاهما قد فقد النظر الحر الى بقية المذاهب والاشياء ، وقص أجنحته التى يحلق بها فوق الكائنات ليقع محصورا فى حظيرة فصيلة من الفصائل أو نوع من الانواع .

***

الكاتب الحر فى نظرى هو الحكم النزيه فى حلبة اللاعبين . انه هو الذى يحصى الاخطاء بغير تمييز ولا تحامل . وهو الذى يفضح ستر الخارجين على أصول اللعب القويم ، وهو الذى ينبه الغافلين الى كل خطر يدنو من قواعد المثل العليا .

الكاتب الحر هو الحارس الأمين لجواهر الفضائل الانسانية .

***

للكاتب الحر مهمة ايجابية أيضا ، فهو يستطيع أن ينشىء للانسانية نظما وعوالم مثالية ، وأن يرسل فى الاجيال أفكارا ومبادىء تصلح أساسا لمذاهب عملية فى السياسية والاجتماع . ولكنه لن يكون مسئولا عن كيفية استخدام أفكاره ولا عن الاشخاص الذين وضعوها موضع التنفيذ .

***

التفكير الحر هو التحرر من كل القيود ، اذ بمجرد التقيد تتعطل فى الحال آلة التفكير الحر .

***

التفكير الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ الا من مبدأ حرية التفكير .

***

لذلك كان النضال بين أحرار المفكرين وبين الزعماء المروضين هو نضال حياة أو موت .

٣

فى طريق التحرر من سلطان الطلاق

أول خطوة في طريق التحرر من سلطان الظلام هى القضاء النهائى على رغبة القوى فى الوثوب على الضعيف .

***

قانون الغابة الذى لم يزل يسيطر على المجتمع الدولى ، يجب أن تحل محله القوانين الخلقية والوضعية التى تنظم كل مجتمع متحضر لأمة متحضرة .

***

ترتفع اليوم أصوات جميلة كأنها أهازيج الطير قبيل الفجر ، قبيل الفجر الجميل . لقد سرنى قول روزفلت فى احدى خطبه : لم يكن فى العالم ولن يكون فيه عنصر يصلح أن يسود غيره من العناصر الاخرى . وليس فى العالم مكان لأمة تزعم لنفسها حق السيطرة على بقية الأمم والاجناس لا لشىء الا لضخامة حجمها وقوة جيوشها . ان لكل شعب مهما يكن صغيرا حقا موروثا فى التمتع باستقلاله كما يشتهى ويريد .

***

سرتنى أيضا آراء ويلز فى حقوق الانسان كما عددها وتمناها ،

ونظراته فى مستقبل الانسانية • وتصوراته فيما ينبغى أن يكون عليه عالم المجتمع •

***

على أن الذى سرنى أكثر من هذا هو أن قادة الفكر والروح قد أدركوا أن عدوهم الحقيقى ليس فقط هؤلاء المهرجين من الزعماء المروضين • أمر هؤلاء هين ميسور • والقضاء عليهم مرهون بوقت يسير • انما العدو الاكبر هو « دين العصر » الرابض وراء الجميع « الاقتصاد الحديث » •

***

لا أمل فى اصلاح العالم الا اذا عولج شقاء الملايين فى كل أمة من الأمم • من أجل ذلك لم يستطع حتى الزعماء المروضين أنفسهم أن يعتمدوا على كلمة « الوطنية » وحدها فى التأثير على الجموع ، فقرنوها بكلمة « الاشتراكية » •

***

ان الصانع الذى يريد أن يلحم ذهبا بنحاس ليس أقل تزييفا من أولئك الذين أرادوا أن يلحموا « الاشتراكية » « بالوطنية »

***

ان جوهر « الاشتراكية » السليم لا يمكن أن يقترن الا بفكرة « الدولية » •

***

ان العالم يتجه الآن من غير شك الى الاشتراكية • بل انه قد خطا اليها بالفعل خطوة واسعة منذ قام فى بريطانيا ذلك الانقلاب الحديث فى نظام العمل ، هذا الانقلاب الذى بمقتضاه يصبح العمال « خدام الدولة » فلا يستطيع صاحب العمل فصلهم بمحض ارادته ويستطيعون هم أن يتركوا أعمالهم بدون اذن السلطات ، كما أنه يستطاع نقلهم من مصنع الى آخر ، وتحدد الحكومة الاجور وساعات العمل ، وتشرف على أرباح رأس المال الخ •• بل لقد قيدت الحكومة أرباح رأس المال الى حد المصادرة اذا تعدى الربح رقما مقررا •

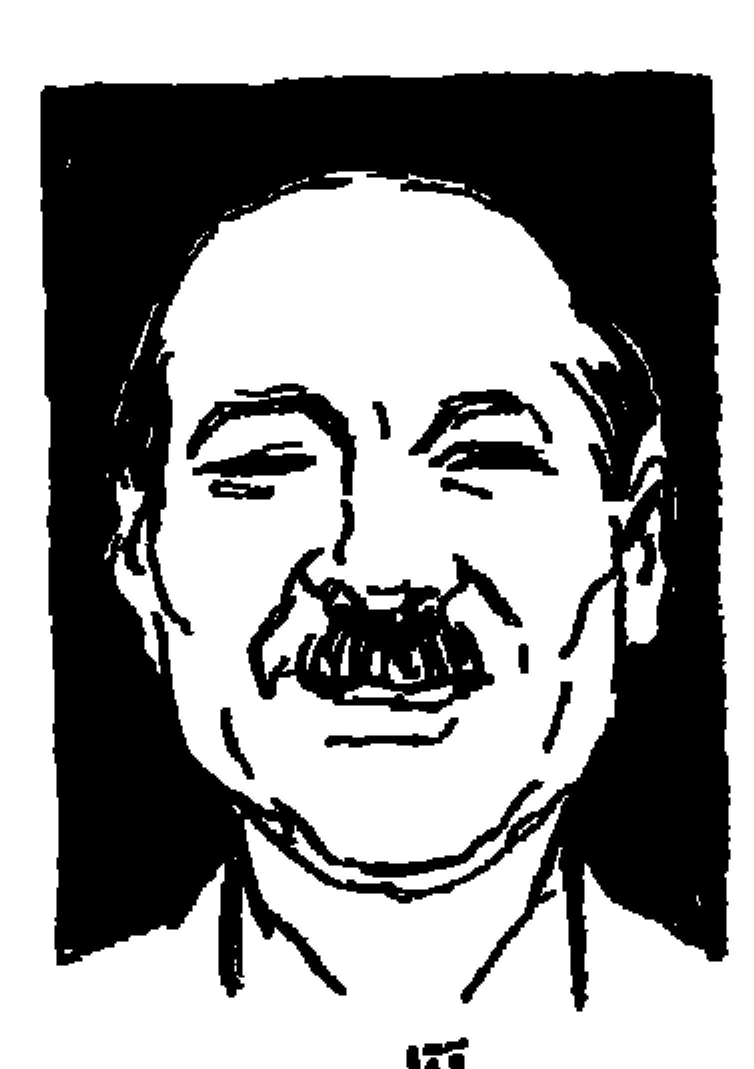
***

انى لست أرى رأى القائلين ان تلك أنظمة استثنائية تزول بزوال الحرب • بل انى أرى رأى القائلين أن كل ذلك نواة لعالم

جديد يتكون منذ الآن ليولد صحيح البنيان بعد الحرب .

***

يقول مستر آتلي زعيم العمال وأحد وزراء بريطانيا اليوم : « انطوى العالم الذى كان قبل الحرب وسوف تكون الانقلابات التى ستجلبها هذه الحرب مثل الانقلابات التى جلبتها الحرب الماضية فى عظم شأنها وسعة نطاقها . أما الخطط التى يراد بها انشاء عالم جديد أقرب الى الانصاف من العالم الذى انقضى فلا يصح تركها الى زمان السلم ، بل يجب الشروع فى رسمها منذ الآن . انى لأرجو بعد الحرب أن يكون تقديم الطعام الملائم لجميع أفراد الامة جزءا ثابتا من برنامج السياسة « القومية » وانى لأرجو أن لا يسمح بعد اليوم ببقاء صنف « الاغنياء المتعطلين » ولا أن ينكر حق العمل على الذين يريدون العمل ويقدرون عليه . وأن يقضى على البطالة القضاء الاخير » .



آتلى

***

لا ريب اذن فى أن الاشتراكية هى جوهر لا بد أن يدخل فى تركيب كل نظام سياسى حديث . وكما استطاعت الدكتاتورية اختراع « الوطنية الاشتراكية » فما أيسر على الديموقراطيات انشاء « الديموقراطية الاشتراكية » .

***

ما أسميه هنا « الديموقراطية الاشتراكية » ان هو الا هذه النظم الاشتراكية التى قامت اليوم داخل اطار الديموقراطية . كما ظهرت من قبل بعض مظاهر تلك النظم داخل اطار الوطنية الدكتاتورية .

***

نحن اليوم اذن أمام حرب « الوطنية الاشتراكية » و « الديموقراطية الاشتراكية » .

« الديموقراطية الاشتراكية » هى من غير شك صياغة مقبولة لجوهرين متلائمين ، لكن « الديموقراطية » شيء و « الدولية » شيء آخر .

***

اذا كانت كل ثمرات العالم الجديد بعد ابادة الدكتاتوريات هى تعميم « الديموقراطيات الاشتراكية » لكان هذا جميلا . لكنه ليس كل ما يصبو اليه التقدم الانســـاني . ذلك ان (الديموقراطية الاشتراكية) هى أيضا أكثر من « نظام داخلى » لكل دولة من الدول ، وان كل دولة « ديموقراطية اشتراكية » تستطيع أن تنشيء لنفسها مطامع استعمارية وسياسة قوميـة تقوم على السيادة الخارجية وبهذا تستأنف الحروب الاقتصادية والدموية بين الدول « الديموقراطية الاشتراكية » بعضــــها ضد بعض .

***

كانت فكرتى منذ أعوام أن « الاشتراكية » ينبغى أن تأتى من الخارج الى الداخل . أى أن تسود بين الدول قبل أن تقر بين الافراد .

***

الاشتراكية بين الدول فى الانتاج والتوزيع والقانون والنظام ، اذا تم ذلك فقد تم كل شيء تبعا لذلك .

***

أهذا حلم بعيد التحقيق ، لا يراه غير خيال ويلز وبرناردشو ؟ كنت أظن ذلك قبل أن أقرأ خطبة رجل رسمى مسئول من أقطاب الحكومة البريطانية الحاضرة ، هو « هربرت موريسون » ، فقد تحدث عن عالم الغد قائلا : (ان الهدف الذى نرمى اليه هو نظام تعاونى دولى يدعمه بوليس وطيران دوليان تعيش الدول فى رحابه مضحية عن طيب خاطر ببعض حقوق اســتقلالها ، لتتضافر جميعها فى اخلاص على خلق حياة أرقى وأصلح ، ينبغى أن نعيش فى ذلك النظام الذى يمنح فيه كل انسان ، لا فقط حرية القول والفعل ، بل حرية العمل لابداع كل ما هو خصب منتج . ينبغى أن نسير نحو ذلك المجتمع الذى برىء من ذلك الطاعون المزدوج : الغنى المتطرف والفقر المتطرف ، نريد مجتمعا

يقبل فيه عن طيب خاطر مبدأ المحافظة على مستوى معقول للصحة والراحة والطمأنينة والامن والتهذيب لكل انسان ٠٠) .

***

وبعد ، أترى الانسانية قد فهمت أخيرا وتعلمت ؟ ٠٠ هل آن الأوان للانسانية ، التى عرفت كيف تنفق ملايين الملايين فى التدمير والاستعباد ، أن تعرف بعد الآن كيف تنفقها فى التعمير والأسعاد ؟ ٠ هل آن لأعيننا أن ترى الطائرات فى أحدث أنواعها الضخمة كالقلاع ، تنقل بدل أثقال المفرقعات والمهلكات ، أعمال الخيرات والمنتجات ، ليعم خيرها البشر والكائنات ، دون أن تعترضها جمارك أو حدود ! ٠٠ أترى أساطيل الهواء اليوم ذات المظلات البيضاء هى ملائكة السماء غدا ، تهبط كى تمحو الفواصل التى وضعتها يد البربرية على الارض منذ القدم لتحول بين الانسان وأخيه الانسان ؟ ٠٠

***

الى كل من يحمل قلبا نابضا بالأمل فى سمو البشرية ، فياضا بالحب للانسان والانسانية أوجه هذه الصيحات وأهدى هذه الكلمات .

١٩٤١ ٠٠

٤

أحاديث حمارى

فى السياسة والاجتماع

حماری .. وحزبه

دار بینی وبین حماری یوما هذا الحوار :
الحمار : أرید أن ألقی علیك سؤالا شخصیا ، أتأذن لی ؟ .
الحکیم : تفضل ! ..
الحمار : ألم تفکر فی الانضمام الی حزب من الاحزاب ؟ .
الحکیم : لماذا ؟ .. القهوة التی أجلس فیها الآن مریحة جدا وتعجبنی للغایة .. ولا أرید بها بدیلا ..
الحمار : خطرت لی فکرة جدیدة طریفة ..
الحکیم : خیرا ..
الحمار : ما رأیك لو ألفنا نحن حزبا ؟ ..
الحکیم : سیاسیا ؟ ..
الحمار : عاملا .. انك تعلن الی فی کل مناسبة اعجابك بی وبفصیلتی من الحمیر .. لقوة مراسنا ، وطول صبرنا ، وشدة جلدنا علی العمل .. فما قولك لو شرعنا فی انتخاب نحو ثلاثین حمارا من الطراز الاو

الحكيم : حزب من الحمير ؟ ..
الحمار : ولم لا ؟ ..
الحكيم : أو تظن أنك أحدثت جديدا فى السياسة ؟ ..
الحمار : على كل حال الجديد هو رئيس الحزب الذى يلون، الاعضاء بلونه ..
الحكيم : ومن ترشح للرياسة ؟ ..
الحمار : أرشحك أنت بالطبع ..
الحكيم : أتظن أنه سيوجد انسجام بينى وبين الاعضاء ؟ .
الحمار : لا شك عندى فى ذلك . انك خير من ينسجم مع، هؤلاء الاعضاء ..
الحكيم : أهذا مدح لى أم ذم ؟! ما علينا .. أنا أتشرف باسناد هذه الرياسة الى شخصى المتواضع ، ولكنى لا يسعنى الا الاعتذار .. فالمسئولية جسيمة .. وأنا أفضل أن أكون عضوا بسيطا فى هذا الحزب .. من رأيى ترشيحك أنت للرياسة ..
الحمار : أنا .. لا أصلح ..
الحكيم : لم لا ؟ .. الانسجام مفقود بينك وبين الحمير ؟ ..
الحمار : بالضبط ..
الحكيم : وغير مفقود بينى وبين « حضراتهم » ؟! ..
الحمار : بالضبط ، لأن مسألة الرياسة ــ كما لا يخفى ــ دقيقة جدا ، توجد دائما مشكلات وعقبات وخصومات . وانك لتعلم أن كل مشروع نافع لا يفسده غير التنافس على الرياسة .. وكل اتفاق لا يقف فى سبيله الا الخلاف على الرياسة .. فاذا أردت نجاحا لمشروعنا هذا فليكن الرئيس من الخارج ..
الحكيم : فهمت .. والمبادىء ؟ ..
الحمار : ليس الآن وقت البحث فيها .. المهم هو تشكيل الحزب ، وانتخاب الرئيس ، واختيار المكان المناسب أو النادى الملائم ..
الحكيم : عجبا .. حتى أنت يا ...
الحمار : ألست معى ؟ ..
الحكيم : أبدا .. أبدا .. ما الذى صنعناه اذن ؟ ..
الحمار : ماذا كنت تريد أن تصنع أكثر من ذلك ؟ ..
الحكيم : أشخاص ومكان وناد . انى يا سيدى ــ كما تعلم ــ

لا أعرف لعب الطاولة ولا الشطرنج . ولست ساحر الحديث ولا ظريف المجلس ولا أحب أن أكون من ذوى الجاه . كل ما عندى قلم لا أرضى أن أسخره فى هدم الاشخاص لمجرد الهدم ، ولا أن أستخدمه فى بناء أشخاص طمعا فى الغنم . انما هو خادم بالمجان لأى فكرة كبيرة أدافع عنها .. تلك هى كل مهمتى .. وكل مطلبى والباقى لا وزن له عندى ..

الحمار : ما هذا الكلام ؟ .. تريد فكرة كبيرة وفلسفة عظيمة .. ولاتريد الهدم ولا الغنمولا المال ولاالجاه ولا .. الخ . تريد أن تعلن ذلك حتى يقولوا عنا انه حقيقة حزب حمير ؟! .

الحكيم : وا أسفاه ! .. كنت أحسن الظن بآرائك ..

الحمار : آرائى كلها صائبة ، ما من مرة أوحيت اليك برأى خاطىء .. أنسيت يوم جعلنا نحصى ما نشرت من أفكار فوجدنا أن كل آرائك السليمة الحصيفة خرجت من رأسى أنا .. وكل آرائك السقيمة السخيفة صدرت من رأسك أنت ؟ ..

الحكيم : هس .. لئلا يسمعك أحد ..

الحمار : لا تخف . انى أخفض صوتى . ولكن أعترف أن آرائى التى أوحيت بها اليك ثبت صلاحها فى كل حين ! ..

الحكيم : لا أذكر أنه ثبت صلاح أى رأى من آرائنا ــ أى آرائك ــ اضرب لى مثلا واحدا ..

الحمار : ما أضعف ذاكرتك .. خذ مثلا رأيى الاخير الخاص بتعدد الزوجات ..

الحكيم : « يا ساتر ! .. » ألم تر كيف قامت قيامة النساء فى كل مكان على هذا الرأى .. وقلن أنه لا يصدر حقا الا عن حمار ؟! ..

الحمار : الحمد لله ! .. أرأيت ؟ ان آرائى لها طابع خاص لا يمكن أن يخفى ..

الحكيم : لهفى على ذلك الفيلسوف الانجليزى الذى قرأت خبره أخيرا فى الصحف ! ..

الحمار : حقا .. ماذا ترى نساء مصر قائلات عنه ؟ انه أعلن أن عدد النساء فى انجلترا يزيد مليونين على عدد الرجال .. ونادى هو الآخر بضرورة التعدد .. وأبدى استعداده هو بالذات للاقتران بست زوجات ؟! ..

الحكيم : الحق أن رأى الانجليزي أدهشني .. وأعاد الى نفسى بعض الثقة في حصافة رأيك ورجاحة عقلك ..

الحمار : من يدرى .. ربما كان لى ابن عم نشيط نزح الى بلاد الانجليز هو الذى أوحى بهذا الرأى الى ذلك الفيلسوف ؟!

الحكيم : لا أظن الحمير تستطيع أن تعيش فى جو انجلترا ..

الحمار : وكيف اذن يفكر الفلاسفة هنـــاك هذا التفكير السليم ؟! ..

الحكيم : لست أدرى ..

الحمار : يسرنى على كل حال أن نكون متفقين فى الرأى ، أنا وهذا الفيلسوف الأنجليزى ..

الحكيم : وأنا يدهشنى انى لم أسمع حتى الآن أن نســاء انجلترا أقمن القيامة على زميلك الفيلسوف هذا .. المطالب بست زوجات ؟! ..

الحمار : انى لم أذهب الى انجلترا ولا أعرف عنها شيئا ، ولكن ربما كانت النساء هناك غير مثقفات ..

الحكيم : غير مثقفات ؟ نساء انجلترا .. وفيهن أعضاء فى البرلمان ؟! ..

الحمار : عجبا .. اذن لماذا ينهضن على الأقل فى البرلمان صائحات ضد هذا الرجل ؟! :

الحكيم : أظن ان النساء هناك لا يصحن لانهن يعملن ..

الحمار : أو تركن اذن زميلى الفيلسوف يقول ما يريد ؟ ..

الحكيم : طبعا .. وهل كنت تنتظر أن يضعن فى فمه اللجام ، كما يتمنى نساؤنا أن يفعلن بك وبى ؟ ..

الحمار : أريد أن أسألك سؤالا محيرا : بماذا تفسر سعة صدر المرأة الانجليزية مثلا وضيق صدر المرأة المصرية ؟ ما السر فى أن نساء انجلترا لم يغضبن عندما قال ذلك الكاتب انه يريد التزوج بست زوجات ، وغضب نساؤنا عندما قلنا بزواج أربعة فقط ؟ هل المصرية تقدس حقوق المرأة وتحرص على حريتها أكثر من أختها الانجليزية ؟ ..

الحكيم : سعة الصدر وضيقه .. ليست ظاهرة مقصورة على المرأة وحدها .. ولكنها ظاهرة شاملة تلاحظ فى حياة كل شعب تبعا لدرجة عراقته فى الحرية والحضارة والقوة .. فالشعوب

الحرة القوية هي في الغالب أوسع الشعوب صدرا وعقلا ٠ ان مسألة الزى الاوربى مثلا أو لباس الرأس لم تصادف في اليابان أى صعوبة أو اشكال ٠٠ وعلى الرغم من التقاليد اليابانية القديمة والوطنية اليابانية العريقة لم نسمع يابانيا ذكر كلمة « القومية » أو « الوطنية » وهو يرتدى الزى الاوربى ، لانه لم يخطر قط بباله وهو يلبس « القبعة » أنه سيخلع « قوميته » ٠ أما الشعوب الضعيفة فتتوهم دائما أن حريتها أو قوميتها أو عقيدتها ستنخلع منها وتذهب عنها بلفظ أو بكلمة أو برداء ٠ فهى تنفعل وترتعد وترتاع لمجرد المظاهر والالفاظ والكلمات ٠٠

الحمار : لا بد لهذا من علاج ٠٠ ما علاج ذلك ؟ ٠٠

الحكيم : حرية الكلام ٠٠ حتى يألف الناس الالفاظ ٠٠ ولا يرتاعوا من الكلمات ٠٠ وحرية الفكر والعمل والتصرفات ٠٠ حتى يعتاد كل فرد احترام رأى الآخر وعمله وتصرفه ٠٠ دون أن يكون مضطرا الى اتباعه ٠ الحرية هى المنبع الصافى لسعة الصدر والعقل ٠٠ الحرية هى الطريق نحو القوة ٠٠ الحرية هى انتصار الانسان على نفسه ٠ وعلى كل سخافة انسانية ٠ الحرية هى دواء كل شيء ٠٠

الحمار : اذن فواجبنا أن نتكلم ٠٠

الحكيم : دائما ٠٠ حتى يسقط القلم من بين أصابعنا الميتة ٠

الحمار : لا تقل اذن ان آرائى دائما خرقاء ! ٠٠

الحكيم : ان الخرق أو الهراء الذى يخرج من أفواهنا فيه أيضا بعض النفع للناس ٠ انه يجعلهم يبتسمون سخرية منا على الأقل ٠ واذا استطاعوا أن يسخروا فى ابتسامة جميلة لا يعلوها زبد الغضب ٠ فقد ساروا خطوة نحو الحرية ٠٠

الحمار : كنت تريد لحزبنا مبادىء ها هو ذا مبدأ عظيم ! ٠٠

الحكيم : الحرية الاجتماعية ؟ ٠٠

الحمار : نعم ٠ ما قولك ؟ ٠٠

الحكيم : لا مانع عندى الآن من تأليف الحزب ٠٠ أجمع الحمير ! ٠٠

الحمار : هنا صعوبة بدت الآن ! ٠٠

الحكيم : ما هى ؟ ٠٠

الحمار : هل تظن من السهل أن نجد الحمار الذى يعترف بأنه حمار ؟ ٠٠

الحكيم : اذن لم يأن الأوان لتأليف هذا الحزب ٠٠

حمارى والذهب ..

رأيت حمارى ذات يوم مهموما .. فجلست بجواره صامتا محترما ما هو فيه .. الى أن أحس وجودى .. فرفع رأسه نحوى .. وجرى بيننا هذا الحديث :..

الحمار : وأخيرا ؟ ..

الحكيم : وأخيرا ماذا ؟ ..

الحمار : مستقبلى .. ألم تفكر فى مستقبلى ؟ ..

الحكيم : عجبا ! ... لأول مرة أسمع حمارا يتحدث عن مستقبله ! ..

الحمار : ما وجه العجب ؟ ألست مخلوقا حيا يعيش خاضعا لقانون الزمن ؟ أليس لى ماض وحاضر ومستقبل مثل جميع المخلوقات والكائنات ؟ لقد عشت معك حتى الآن عاريا .. لا سرج ذهب .. ولا « رشمة » فضة .. ولا برذعة مرصعة .. ولا ؟..

الحكيم : شىء جميل ! .. أهذا ما يشغلك الآن ؟!..

الحمار : هذا ما يشغل كل انسان . ان الناس كلها من حولنا تفكر فى الذهب .. وتعيش للذهب .. وتتنفس بالذهب ..

وأنا وأنت قاعدان ننظر الى القوم من عل متدثرين فى أسمال أفكارنا ، وأطمار فلسفتنا ..

الحكيم : اسمع أيها الحمار .. فرغنا من آرائك الفلسفية .. ومن مبادىء حزب الحمير الذى أشرت بتأليفه .. واليوم تريد أن تفتح لى باب أطماع جديدة ؟! ..

الحمار : انى أفتح لك باب أعمال .. وما دمت أنا الذى يفكر لك ..

الحكيم : فكر لى فى شىء نافع من فضلك ! ..

الحمار : أنفع من الذهب ؟ يا للعجب ! .. هنالك لحظات أتساءل فيها أأنا الحمار أم ..

الحكيم : الزم أدبك . لقد بدأت أضيق بك ذرعا .. وأشعر أننا أصبحنا غير متفقين فى كثير من الافكار والمشارب والميول .

الحمار : بل أنا الذى ضقت وضجرت و « غلبت » ! ..

الحكيم : فلنفترق اذن ! .. ما الذى يرغمنا على هذه الحياة المشتركة ؟ .. وعلى هذه الصحبة التى لا أجنى منها غير سوء السمعة ! .. اذهب اذا شئت ، وابحث لك عن صاحب من ذوى المال ـ وما أكثرهم اليوم ـ يغطى عريك المزعوم بالذهب والفضة . وسترى بعد ذلك هل شعرت بالدفء حقا وعلى ظهرك ذلك الغطاء الثمين ؟! ..

الحمار : وهل أنا شاعر بالدفء الآن وأنا عارى الظهر ؟! .

الحكيم : بالطبع .. لو كان لك قلب يعرف حرارة الايمان .

الحمار : يا لهذه الكلمات ! .. انك تكسونى بالكلمات .. وتغذونى بالكلمات .. ولا أجد شيئا عندك غير كلمات ..

الحكيم : ولن تجد عندى شيئا غيرها .

الحمار : من سوء حظى ! ..

الحكيم : حقا .. ربما كان ذلك من سوء حظك لانك حمار .

الحمار : الزم أدبك .. يكفى انى تحملت عشرتك طول هذا الزمن ، وأنت لا يتحملك أحد .. ولكن آن الأوان أن أتركك لوحدتك .. لتأكل وتشرب كما تشاء من أفكارك وكلماتك ..

الحكيم : اسمع .. انى لاأطيق أحدا يحقرالأفكار والكلمات ! ان الكلمات هى التى شيدت العالم ، ان محمد لم ينشر الاسلام بالذهب بل بالكلمات ، وان عيسى لم ينشىء المسيحية بالمال

بل بالكلمات . الكلمات الصادقة والافكار العالية والمبادىء العظيمة هي وحدها التي قادت الناس في كل أطوار وجوده .. وبنت الأمم والشعوب في كل أدوار تاريخها . ما من حركة وطنية أو قومية أو انسانية قامت أول أمرها على شيء غير المبادىء والكلمات .. وعندما يظهر الذهب آخر الأمر ببريقه ورنينه .. فاعلم أن أوان الانهيار قد آن .. وأن هذا البريق سوف يذيب المبادىء بأشعته الساحرة .. وان هذا الرنين سوف يصم الآذان بجرسه الفاتن عن سماع الكلمات ..

الحمار : تريد من ذلك أن تقول أن الذهب عدو المبادىء ؟ ..

الحكيم : بلا شك .. لأنه هو ذاته ينقلب الى مبدأ . مبدأ خطر ، طاغ ، متأله .. ينسى الناس كل المبادىء الاخرى الحقيقية السامية النبيلة .. أنظر الى مجتمعنا اليوم ، وقل لى ما هو المبدأ الغالب المسيطر على كل النفوس ؟ لقد قلتها أنت نفسك الساعة : انه الذهب . لقد تحكم حتى أصبح هو المقياس لقيم الرجال . ألا تسمع أن كل رجل كفء يتباهى بأن دخله من الشركات كذا ألف .. فاذا طلب لواجب قومى وازن فى الحال بين خسارته المالية هنا وربحه المالى هناك . وجاراه المجتمع فى حسابه المادى صائحا : « لا مصلحة لفلان فى أداء هذا العمل لانه سـ [illegible] بعض موارده من كيت وكيت » .. أما أن يقام وزن للواجب المعنوى فى ذاته ، فهو أمر لم يعد فى بال أحد ، المعنويات والمثل العليا فقدت قيمتها في سوق الذهب . حتى الاطباء نسوا أحيانا واجبهم الحقيقى . فأصبح أغلبهم صيارف نقود . يفخر كل منهم بدخله السنوى ولا يفخر بعمله الانسانى . والزواج أصبح هو الآخر علاقة مكسب وخسارة فى ميدان المـال ، فاذا تزوج أحدهم تساءل المجتمع على الفور عما تملك العروس ؛ لان هذا هو المبدأ الذى تقوم عليه الآن هذه الشركة « المقدسة » ! ورجال العلم تركوا علمهم ونظروا الى الدرجات والمرتبات . فلن تجد فى بلادنا عالما منكبا على عمله تحت « مكرسكوب » ليل نهار ليستكشف جديدا دون أن يكون له مطمع غير أفكاره العلميـة ونجاحها ، وخدمة الانسانية لذاتها . لان هذه الافكار والمبادىء ذابت فى جو هذا المجتمع الذهبى .. وانصهرت هذه الكلمة من جديد فى قالب من ذهب .. فاذا الناس ينقلبون تجارا . كل

فرد فى الامة يريد أن يكون تاجرا .. بل ان لكل شخص اليوم عملين : التجارة وعمل آخر . كل انسان الآن تاجر الى جانب عمله الظاهر .. لان الذهب أعمى بصائر الناس ولعب بعقولهم وقلوبهم الى حد أنساهم أنفسهم ومدلول لغتهم .. فغدا للناس قاموس جديد كل كلماته : الربح .. الربح .. والمال .. المال .. المال .. والثراء .. الثراء .. الثراء .

الحمار : اذا كان هذا هو قانون العصر ، فلماذا تريد منى أن أخرج على القانون ؟ انى كائن عصرى من واجبى أن أنضوى تحت لواء « المثل الاعلى » المسيطر فى زمانى . وما دامت الافكار والكلمات قد ذهبت بدعتها من عصرنا العملى ، فأنا كذلك أخلع عن نفسى تلك البدع القديمة ..

الحكيم : أيها الحمار العصرى .. ان الافكار والمبادىء ليست من البدع القديمة فى كافة الشعوب .. أنظر حولك تجد شعوبا لم تزل تبذل دماءها سخية من أجل أفكار ومبادىء .. ما هو الدافع الذى يدفع هؤلاء الملايين من الشباب الناضر الى الجود بأرواحه ودمائه ؟ أهنالك دافع آخر غير بضع كلمات ؟! نعم .. بضع كلمات آمن بها فدفع فيها دمه الغالى . كلا .. ان الافكار والمبادىء ليست من البدع القديمة الا فى نظرنا نحن .. ان الكلمات الصادقة العظيمة بخير .. وهى لم تزل حافظة قوتها فى كثير من الامم والشعوب .. وهى ما برحت جديرة أن تبذل فى سبيلها المهج والارواح .. قديرة على أن تثير فى القلوب حب التضحية بغير ثمن ..

الحمار : انك لتدهشنى .. كيف استطاع عصر واحد أن يجمع هذا التناقض ؟ دماء تسيل فى مجرى .. وذهب يجرى فى مجرى آخر ؟! ..

الحكيم : لقد اجتمع الضدان فى كل زمان .. منذ فجر الخليقة والعظمة تسير الى جانب الحقارة . والسمو الى جانب التدهور .. والعلو الى جانب الحضيض .. ولكن العبرة أى الطريقين تختار لنفسك ولأمتك ؟ ..

الحمار : اذا سألتنى أن أختار لنفسى فانى ..

الحكيم : انطق ..

الحمار : دعنى أفكر .. فانك تعلم انى لا أعطيك ثمرة تفكيرى

الا بعد ترو وتأمل ..

الحكيم : مجرد التردد فى الاختيار يجعلنى أحكم عليك بأنك حمار ..

الحمار : أتظن أني وحدى ؟! اطرح سؤالك على الناس .. وخيرهم بين المال والمبادىء .. ثم احص بنفسك عدد المترددين .

الحكيم : آه .. والله « غلب حمارى » ! ..

حماري يشتغل بالسياسة

جاءني حماري أخيرا ثائرا يزبد وينهق ويرعد ويقول .

ـ اسمع ، اني مصمم هذه المرة تصميما أكيدا ، ومصر اصرارا تاما ، فاياك أن تثبط عزيمتي أو تحاول منعي ، أو تتدخل في شؤوني ، أو تعرقل مشروعاتي ، أو تفسد تفكيري ، أو تبرد حماستي أو تكتم شعوري أو تخمد نشاطي ، أو تطفي لهيبي ، أو ...

ـ مهلا .. مهلا .. ما هو الموضوع أولا ؟ ..

ـ الموضوع يا سيدي اني قررت نهائيا الاشتغال بالسياسة .

ـ على الرحب والسعة ، ومن قال لك اني معارض ؟ ..

ـ أنت موافق اذن على دخولي معترك السياسة ؟ ..

ـ موافق جدا ..

ـ هذا عين العقل ، الواقع أنها كانت سبة أن يجلس أمثالنا هكذا ينظرون الى أحداث بلادهم ولا يحركون رأسا ولا ذنبا .. نحن الذين نشأنا في هذا البلد ، ونعمنا بخيره وخميره ، ورعينا برسيمه ونجيله ، وشربنا ماء نيله ، كان حتما علينا أن يكون لنا يد في مصيره .. لا سيما ونحن من أصحاب الفكر الراجح ، ومن قادة الرأى الناضج ..

فنظرت الى حمارى مليا وقلت :
ــ أنت تتحدث عن نفسك بالطبع ..
فلم يحفل بالالتفات الى ملاحظتى ، ومضى يقول :
ــ انها لضريبة يجب أن يؤديها أمثالنا ، فالضرائب الواجب أداؤها للدولة ليست مجرد المال الذى يدفع للمحصلين . ولكنها المواهب وثمراتها ، والقرائح وآثارها ، ان نتاج الاذهان لا يقل عن نتاج الالبان ثروة للامة ، وأنا كما تعلم لست من فصيلة البقر ولا الجاموس حتى أودى ضريبتى لبلدى من نتاج ضرعى ..
ــ مفهوم ..
ــ اذن كان يجب أن أساهم فى الحركة السياسية بنصيب ، لذلك قررت الانضمام الى حزب من الاحزاب ..
ــ هل وقع اختيارك على حزب بالذات ؟ ..
ــ لا ، لم يحدث بعد ، وهذا بالضبط ما جئت أستشيرك فيه ، على أنه توجد صعوبة قد تقف فى سبيلى ، يحسن بى أن أذكرك بها حتى تكون على بينة من الأمر قبل الادلاء بمشورتك ، تلك الصعوبة التى تخيفنى تتعلق بشخصى ، أعنى .. هل تظن انى سأجد حزبا يقبل أن تنضم اليه حمير ؟ ..
ــ اطمئن من هذه الجهة .. ولا يكن عندك خوف ! ..
فلمع الفرح والأمل فى عينى حمارى وقال :
ــ اذن قد ذللت الصعوبة ، ولندخل فى جوهر الموضوع ، ما هو فى نظرك الحزب الذى يتفق مع مبادئى ؟ ..
ــ أحب أولا أن أتشرف بمعرفة مبادئك .
ــ مبادئى معروفة : العمل لمصلحة الغير وانكار المصلحة الشخصية ، ذلك هو المأثور عن جنسنا وفصيلتنا منذ ظهرنا على الارض ، لقد عملنا وكدحنا وجهدنا لما فيه خير الآخرين ، ولم نسأل لانفسنا أكثر مما نستحق بعرق الجبين ، فلم يعرف عنا أننا سرقنا كما تسرق القطط ، ولا نعمنا بالترف والدلال كما تنعم الخيول ، ولا طمعنا فى أن نعزز ونكرم ونلقم السكر فى أفواهنا ولا نعمل شيئا .. ولا شىء غير ذلك .. حتى لقد جرى الناس على أن ينعتوا كل من يكد ويجد بأنه « حمار شغل » فمبادئنا هى ، كما ترى ، أن ننتج ونتتج ، ولا نبغى من وراء انتاجنا منفعة لذاتنا ..

ـ تلك بالطبع مبادئك باعتبارك حمارا ، ولكنك تريد ، على ما فهمت ، الانضمام الى حزب من أحزاب البشر •

ـ نعم ، وهل يقتضي ذلك أن أغير هذه المبادىء ؟ ••

ـ تغيير طفيف ، كلمة واحدة صغيرة ضعها خلف عبارتك ، ليكون مبدؤك سليما فى عرف البشر ، ضع كلمة « لا » أى لا انتاج للغير ، ولا انكار للذات •

ـ عجبا ! •• وما فائدة الحزب السياسي اذن ؟ ••

ـ فائدته نفع ذاته ، أليست هذه فائدة ؟ ••

ـ والآخرين ؟ ••

ـ أى آخرين ؟ ••

ـ الفضيلة أو الجنس أوالامة أو الدولة أو غير ذلك من الاسماء التى تطلق على المجموع ؟ ••

ـ لا تنس أننا نتكلم الآن فى محيط السياسة ، والسياسة فى كل زمان هى اللباقة أو المهاترة أو الخفة أو البراعة أوالكياسة التى تستطيع بها أن تسحب خاتم السلطة من أصبع منافسك وتضعه فى أصبعك •• الى أن يغافلك المنافس وينتهز منك فرصة فيسحب بدوره الخاتم من أصبعك ويضعه فى أصبعه •• وهكذا دواليك •• حتى يتعب أحدكما من هذه اللعبة وقلما يتعب •• فالمسألة اذن لا علاقة لها بانتاج ولا عدم انتاج •

ـ والشعب ؟ أهو قانع بمجرد المشاهدة ؟ ••

ـ ومن قال لك انه قانع ؟ لقد دخل هو أيضا حلبة اللعب ، ان ساسة الماضى علموه كيف يتذوق هذه اللعبة ، فأصبح أكثر منهم تهافتا عليها واهتماما بها ، وأشد شوقا الى رؤية الخاتم ينتقل من يد الى يد ، ولا يطيق أن يصبر طويلا عليه وهو فى أصبع واحدة •• شأن المقامرين الذين لا يطيقون رؤية كرة « الروليت » تقف دائما على رقم واحد بلا تغيير ، فهم يهللون ويهتفون للكرة كلما وقفت على رقم جديد •• ويفرح الرابح ويحزن الخاسر ، ثم تدور الدورة ويتغير الوضع ، ويتبدل أصحاب الفرح والترح بالتناوب ، وهكذا دواليك ••

ـ والشعب مسرور بذلك ؟ ••

ـ كل السرور ، ولقد أكسبت ، منذ زمن ، الحكومات هذا الميل فيه ، فعملت على تعميم هذه المتعة بين كل الطبقات ، وتيسير

اشتراك كل فرد فيها ، فجرت على سنة لطيفة : وهي أن تأتي كل حكومة ومعها برلمانها وانتخاباتها ، أي « عدة الروليت » الخاصة بها ، فينصب « المولد » وتزدحم الجموع ، وتنتقل النقود من جيب الى جيب ، ويعلو الصياح من فم الى فم ، وتمد الموائد وتقام الولائم ويكثر الطعام والشراب والبذل والعطاء ، ويغمر الشعب في جو صاخب كجو الاعياد ردحا من الزمن ينسيه شقاؤه ، ويلهيه عن مصيره .

ـ هذا شيء جميل ! ..

فنحن أمام ظاهرة جديدة ، ان ثراء الحرب قد غير عقلية الناس

ـ جدا .. على ان هذا كله كان يحدث في الماضي ، أما الآن فيما يظهر ، ما من أحد يريد أن يخسر ، لذلك كثر اللعب في عين الوقت على رقمين أو أكثر ، وجعل الشعب مبدأه ذلك المثل الشعبي القديم :

ـ « من تزوج أمي قلت له يا عمي » والام هنا هي السلطة ، فلا غرابة في خروج الناس أفواجا من الحزب الذي خلا من السلطان ليدخلوا أفواجا في الحزب الذي لمح فيه الصولجان ، كأنهم يخرجون من دار سينما تعطلت فيها الرواية ، ليدخلوا المسرح الآخر الذي أضيء بأنوار الرواية الجديدة .. ما دام هذا هو الاتجاه العام فنحن سائرون بدون أي مجهود نحو توحيد الاحزاب ..

ـ اذن فأنت لا ترى لي أن أنضم الى حزب بالذات ؟ ..

ـ انضم كما تشاء على المبدأ الشعبي ..

ـ « من تزوج أمي ... » ؟ .

ـ بالضبط ..

ـ ولكن ..

ـ لا تقل ولكن .. ولا تكن حمارا .. ان عناد الحمير وصلابة رؤوسها لا تنفع في السياسة ، اليوم كل شيء لين مرن .. لا في المبادىء وحدها .. بل في كل شيء .. وعند كل الناس .. حتى بين الموظفين المسئولين عن تنفيذ القوانين ، ألم تسمع بذلك المأمور الذي حجز مجرما من مجرمي التموين تطبيقا للقانون ، فاتصل به أحد ذوي النفوذ وأمره أن يفرج عنه فورا ، فأخرجه من الحبس بعد الصفع والاهانة وأجلسه في مكتبه

ووقف بين يديه قائلا : « والله لا يصح أن تنصرف عنا قبل أن تشرب القهوة » ! ..

ـ يا للعجب !. ..

ـ لباقة ، أليست لباقة ؟! ..

ـ واأسفاه ! .. انى لا أملك هذه اللباقة ! ..

ـ اذن اجلس حيث أنت ، ولا تطمع فى سياسة أو ادارة .. بينى وبينك .. ألا تظن ان هذه الحال فى مجتمعكم يجب أن تصلح ؟ ..

ـ أظن أن هناك تفكيرا يتجه اليوم نحو الاصلاح ..

ـ ومن الذى يصلح ؟ أهى الحكومة التى تصلح المجتمع ؟ أم المجتمع هو الذى يصلح الحكومة ؟ ..

ـ أجيبك عن هذا اذا أجبتنى أنت :

هل البيضة من الفرخة ، أو الفرخة من البيضه ؟ ..

ـ دعك من السفسطة ، ان اشتغالى بالسياسة على مبادئى قد يعطى على كل حال خير مثل من أمثلة ..

ـ من أمثلة الحمق والقناعة والغفلة .. الجديرة بحمار .. هذا ما سيقال عنك وعن مبادئك ..

ـ فليقولوا ما شاؤوا ..

ـ انى أعلم منذ الآن ما سوف يحدث ، فاجلس حيث أنت واسمع نصيحتى ! انك لن تؤثر فيهم بمبادئك .. ولكنهم هم الذين سيؤثرون فيك بمبادئهم .. ولن يمضى وقت طويل حتى ترى انك أنت لم تعد حمارا ..

كل عام والحمار بخير !

تلقيت من « حمارى » التهنئة التالية :

زميلى توفيق الحكيم ..

واجب الصداقة ، والزمالة والعيش والملح ، ولو انى لا آكل الملح ـ يدعونى الى أن أتقدم اليك ، قبل جميع الناس ، مهنئا بالعيد ! ولا تظن انى طامع فى أن تمنحنى « العيدية » .. فأنا كما تعلم لا أنتظر منك منفعة ولا مصلحة .. انما أعرفك لوجه الله .. وهذا نادر اليوم فى بلدك ، وعند أبناء جنسك ! .. بل انك لتعلم انى أنا الذى يوحى اليك بالافكار ، وأنت الذى تقبض الاجور ! ..

ولم يخطر ببالى أن أطالبك يوما بنصيب .. لانى « حمار » ! فليكن عزائى على الاقل حسن ظنك بى ، وبأخلاقى ، وثقتك ببعدى عن الغايات والاغراض ! ..

فتهنئتى اليك اذن ليست من طراز تلك التهانى ، التى تمطر اليوم سيولا على أبواب ذوى السلطان ، وتمنياتى لك ليست من قبيل الزلفى والرياء ! بل هى شىء خالص صادق لشخصك المكتوب على أن أصاحبه فى الايام السود والبيض ! ..

واذا سألتنى ماذا أتمنى لك فى حقيقة الامر ، لقلت لك بكل بساطة :

أن تكون مثلى !! ..

اياك أن تغير مبادئك فى الحياة ! اياك أن تطيش بلبك الاطماع الزائفة ، ويبهر بصرك الجاه الكاذب ! ..

أثبت على مبدئى الذى ألقنه لك صباح مساء : عش لأداء الواجب ، ولا تهدر الواجب لتعيش ..

وسوف أذكرك بهذه الكلمة فى كل عيد ما حييت ! أنت وأنا ..

« **حمارك** »

فكتبت اليه :

عزيزى الحمار ..

أنت دائما لا فائدة منك الا الثرثرة ووجع الدماغ .. لو كنت خروفا على الأقل لذبحتك ، وأكلتك ، وتظاهرنا بتوزيع لحمك على الفقراء ، ولكنك حمار ..

حماري والبردعة

سألني حماري يوما قائلا :

ـ يتحدثون عن العمال وعن أصحاب رءوس الاموال ، فمن هو العامل ؟ ..

فقلت له :

ـ هو انت ..

ـ هذا صحيح .. ليس في يدى غير العمل ولا أملك غير جهدى وكدى ، فمن الرأسمالى اذن ؟ ..

فقلت له :

ـ هو الذى يملك ذهبا يصنع منه بردعة يركبك بها الى مأربه ، ثم ينزعها عنك آخر النهار ولا يعطيك سوى ما يمنعك من أن تموت جوعا .

ـ ولماذا يفعل بى ذلك ؟ ..

ـ لانه يعتقد أن الذهب هو كل شيء ، وأن عملك ليس شيئا ، وان الذى حمله البردعة لا ظهرك ! ..

حماري والقومية ..

سألني حماري :

ــ أنت تنادى بايجاد « الطابع » والشخصية القومية لرجالنا ونسائنا . فلماذا اتخذت « البيريه » لباسا للرأس اذن ؟ ..

فقلت له :

ــ انك تتكلم مثل كثير من أمثالك فى بلادنا . أولئك الذين لا يفهمون ان المقصود بالطابع والشخصية والقومية هو جوهر التكوين الذاتي لا عرض الرداء الخارجي . ولو أخذنا برأيك ورأى أمثالك لكان على رجالنا أن يظلوا دائما بالجلباب والطاقية واللاسة . وعلى نسائنا أن يحتفظن بالملاية اللف والبرقع .. ولكن الرداء الخارجي لا علاقة له بالشخصية والقومية . والا جاز لنا أن نقول ان اليابانى والتركى والايرانى والصينى لا شخصية لهم ولا قومية لانهم يرتدون القبعات . وان لورنس وفيلبى فقدا شخصيتهما الانجليزية لانهما لبسا أردية البدو .. ان المرأة الانجليزية والتونسية والروسية يشتركن جميعا فى

عين « الموضة » للرداء الخارجي وعين آخر طراز للزينة دون أن يمنع ذلك من اختلافهن الواحدة عن الاخرى فى الشـخصية والطابع والقومية ..

في المحيط الدولى لعصرنا الحديث لا يوجد شيء اسمه : « رداء قومي » ولكن يوجد شيء اسمه : « تفكير قومى » و « شخصية قومية » ..

حمار افندى

في كل يوم يسألني الناس عن حماري ، كيف أصبح ؟ وماذا يصنع ؟ وأين اختفى منذ شهور ؟ وأنا لا أستطيع جوابا ، فالواقع أنه تركني ذات نهار ، بغير كلمة وداع .. ومضى الى حيث لا أدري .

أمس فقط مر بى على المقهى المعتاد ، حمار متأنق يلبس طربوشا ! ـ وما أضر الحمير الذين يلبسون طرابيش ـ ويضع علي طرف أنفه منظارا ، عرفت من مشيته انه حماري .. فناديته ، فتعام وتجاهلني ، وأسرع مبتعدا .. فصحت وراءه صيحة لم ير عنها مندوحة عن الالتفات والتحيه .. فاستقبلته هاشا باشا ، وقلت له :

ـ من فات قديمه ..

ـ أفلح وربح ..

فبادر يقول :

ـ كيف ذلك ؟ اخبرني !

ـ « الحركة بركة » هكذا يقول المثل السائر ، اني معك لم أكن حمارا ، ولكني كنت جمادا مثل مائدة المقهى هذه ، الموكب

أمامنا يسير والناس تتحرك والدنيا تدور ، والمبادىء تتغير .. الفقير يثرى . والوضيع يعلو . والجاهل يسود ، كل حمير الارض أصبحت قادة وزعماء ووزراء .. ما عدا حمارا واحدا .

ــ انت ..

ــ وأنت أيضا ..

ــ أنا لا أحب التغير ولا التلون ولا اللف ولا الدوران .. أنا أحب الثبات .. والثبات على المبدأ .. تلك هي الكلمة الكبرى التي كنا نهتف بها عام ١٩١٩ ، وكانت هي دستور الجميع .. وكانت هي التي جعلت من مصر شعلة بطولة .

ــ نحن الآن في عام ١٩٤٥ ، فأصبح من النوم ، مبدأ اليوم هو : غير مبدأك ، كما تغير « موديل » سيارتك ، أنظر حولك في أنحاء العالم ، ها هو ذا « ميثاق الاطلنطي » أصبح « موديلا » قديما ، وها هي ذي مبادىء مؤتمرات يالتا وطهران وبوتسدام ، يقال أنها أصبحت بالية عتيقة ، وترتفع الاصوات بضرورة تغيير ، لا « بقطع تغيير » بل باصلاح وتبديل .

أما في سياستنا الداخلية ، فالأمر كالعادة لم يصل بعد الى المبادىء . فنحن لم نزل نعمل في دائرة الاشخاص ، والشعار لمن أراد تقدما هو : « بدل حزبك ، غير زعيمك » ! .

ــ قد فهمت الآن .. فأنت من أجل ذلك بدأت أولا بتغيير صاحبك القديم .. لا بأس .. الله يسهل لك .. لكنك لم تخبرني : ماذا تفعل في الوقت الحاضر ؟ .

ــ أحرر مؤقتا في الجرائد والمجلات ، ألا ترى صـــورى الكاريكاتورية من حين الى حين ؟ ..

ــ حمار أفندي ؟! .. نعم .. نعم .. وكلماتك المأثورة تحت كل صورة .. تعال اذن واقعد ، ودعني أطلب لك فنجانا من القهوة ! .

ــ باعتبارك زميلي في التحرير .. لا مانع .

ــ زميلك ؟! .

ــ أمري الى الله .. أنت تعرف دائما اني متواضع .

ــ لا حول ولا قوة الا بالله ! أنت على كل حال يا حماري خير من حمار ذلك القروي المسكين ..

ــ أي قروي مسكين ؟ .

ـ اجلس واسمع مني قصته :

فجلس الى جانبى ، وجاءت القهوة ، فأخذ يرشفها بوقار ، وطفقت أنا أقص عليه قصة ذلك القروى الميسور الحال الذى لم يكن له عقب ولا خلف ، ولم يكن يعتز فى دنياه الا بحمار مدلل ، رباه منذ فطم على أجود العلف ، وسمع القروى يوما أن أولاد أهل اليسر يرسلون الى المدارس ٠٠ فمضى بحماره الى مدرسة الحضر ، وسأل ناظرها : « هل فى الامكان أن يعلم هذا الحمار ؟ » ٠

وكان الناظر رجلا لبقا ظريفا ، فقال : « فى الامكان جدا ، ما دمت تقوم بدفع المصروفات ، وهى عشرة جنيهات فى كل عام » ٠٠ فقبل القروى الشرط ، وترك الحمار فى فناء المدرسة ، وانصرف على أن يعود فى آخر العام ، وباع الناظر بالطبع الحمار وتصرف فى الثمن ٠٠ ومرت الايام وجاءت نهاية العام ، وعاد القروى يسأل عن النتيجة ، فقال له الناظر الاديب : « مبارك ! حمارك نجح ونقل الى السنة الثانية » ٠ ثم نصح له أن يبقيه فى حفظ المدرسة ، وأن لا يراه الآن أو يأخذه معه لتمضية الاجازة ، خشية أن ينسى ما تعلم ، اذا رجع فاختلط ببقية الحمير ، فاقتنع الرجل ، ودفع مصروفات السنة الجديدة ، وانصرف ٠ ومر العام ٠٠ وعاد القروى يسأل ، فعلم أن الحمار نجح كذلك ونقل الى السنة الثالثة ٠٠ وهكذا أخذت الاعوام تمضى ٠٠ والمصروفات تدفع ، والحمار ينقل ٠٠ حتى رأى الناظر ان الأوان قد آن ليريح القروى ، ويدخل فى قلبه الاطمئنان ٠٠ فلما جاءه فى آخر مرة وسأله عن حماره قال له :

ـ مبروك ٠٠ لقد تخرج وأصبح طبيبا ٠

ـ أصبح طبيبا ؟! وأين هو الآن ؟ ٠٠

فأشار الناظر الى عيادة طبيب مجاور للمدرسة ، كتب عليها بحروف كأقدام الافيال ، فوق لوحة بعرض واجهة العمارة : عيادة الدكتور « فلان » المتخصص فى جميع الامراض الباطنية ، الحادة والمزمنة ، والمتخرج فى أرقى جامعات ومستشفيات العواصم الكبرى بدرجة جيد جدا مع بكالوريوس فى علم الاشعة بتفوق والحائز على مدالية الشرف فى علم الصحة ، والعضو بنقابة أطباء عموم القطر ٠٠ الخ الخ ٠٠

ففرح القروى ، وأقسم أن يهدى الناظر « صفيحتين » من المسلي و « فردين » من الارز و « قفصين » من الدجاج و« بلاصين» من المش « حلاوة » هذا النجاح .. وذهب من فوره الى العيادة التي دله عليها ، ليرى حماره النابغ .. فما أن دخلهـــا حتى استقبله الممرض وأخذ منه أجرة الكشف مقدما ، ولم ينفعــه احتجاجه بأنه انما أتى للزيارة المنزهة من الغرض والمرض . فوقت الطبيب النابغة من نصار ، وعقارب ساعته يجب فى سيرها أو زحفها أن تفرز ذهبا .

وانتظر القروى حتى جاءت نوبته ، فدخل على الطبيب دخول رآه وحملق فيه وفحصه من رأسه الى قدمه ، ثم قال له بصوت رآه وحمق فيه وفحصه من رأسه الى قدمه ، ثم قال له بصوت يقطر عطفا وحنانا :

ـ مبروك يا دكتور ! .. أنت لا تعرف مقدار سروري ! .. شكلك تغير كثيرا ، ولكن لا بأس ، منزلتك عندنا لم تتغير .

ـ العفو ! .. اخلع ملابسك وأخبرني مم تشكو ؟ .

ـ أنا لست مريضا .. أنا جئت لأراك بعد حصولك على « الشهادة » لأفرح بك .

ـ متشكر ! .. وقتي كما تعلم محدود .. و ..

ـ أهكذا تقابلني بعد طول الفراق ! أنت طبعا تتذكرني ..

ـ آسف ! .. لا أتذكر ..

ـ عجبا ! . ألا تذكر دارنا في « كفر غطاس » ؟ .. هل نسيت الايام الحلوة .. عندماكنت أعتز بك ولا أرضى أن أضعك الا في « زريبة » بمفردك ، بعيدا عن بقية « المواشي » ، ولا أعلفك الا بشعير منقى وتبن مغربل ! ..

فثار الطبيب وصاح فى القروى :

ـ ما هذه الوقاحة يا قليل الحيا ..

فبهت القروى المسكين ، وقال بنبرة ألم :

ـ أنا قليل الحيا ؟! أهذا جزائي بعد طول عنائي فيك وتربيتي لك وانفاقي عليك فى الغيط والبيت والمدارس ، وعنايتي بك وبعلفك وتبنك ودريسك وبرسيمك ؟ ..

فلم يتمالك الطبيب ، وانفجر :

ـ تبني ودريسي وبرسيمي ؟! . هل جننت أيها الرجل ؟! .

أبينى وبينك معرفة حتى تأتى الى وتهيننى فى عيادتى ؟! ..
— أتنكر أيضا وجود المعرفة بينى وبينك ؟ .. اللهم عفوك ! .. هل يصل نكران الجميل الى هذا الحد ! .. ولكن لا بأس ربنا يعوضنى فيك خيرا يا صاحبى .
— أنا صاحبك يا حمار ؟! .
— أنا الحمار ؟! ..
قالها متعجبا وتركه وخرج خائب الامل خائر النفس ، وعرج على ناظر المدرسة .. فلما رآه الناظر ، ابتدره قائلا :
— رأيت حمارك ؟ ..
فأطرق القروى حزنا وقال كالمخاطب نفسه :
— ليتنى لم أره ..
— لماذا ؟ ألم يقبل يديك ؟ ..
— انه لم يعرفنى ..
— احتقرك ؟ ..
— ماذا فعلتم به ؟ يخيل الى أنه لم يعد يرى انه حمار .. بل انه رآنى أنا الحمار ! ..
— ألم أقل لك أنه نجح ، وأننا نجحنا فى تخريجه ؟ تلك هى مهمتنا ، نحشو دماغ من يأتى الينا بقليل من علم يعمى بصيرته ، فلا يبصر بعد ذلك نفسه ولا يرى أنه حمار .
— الذنب اذن ذنبى ، لو علمنا الغيب لرضينا بالواقع ، ولو علمت هذه النهاية لما جئت به اليكم ، والآن ماذا ينبغى له كى يعود فيعرف حقيقته ، ويدرك أنه حمار ؟؟ .
— هيهات ! هيهات ! لا بد لذلك من علم كثير ومن فلسفة كبرى ، لا توجد فى كل المدارس ، ولا تتاح لكل المدارك .
سمع حمارى « سابقا » هذه القصة ، ثم نهض متفاخرا ، ونظر الى من فوق منظاره متعاليا وقال :
— أفادك الله ! كم من العلم اذن وكم من الفلسفة يلزم لك حتى تستحق أنت أيضا لقب « حمار أفندى » ! ..
نظرت اليه مليا وقلت :
— كى أكون مثلك وعلى مبادئك الجديدة .. لا أدرى .. وهل أستطيع أن أعرف نفسى ، أو أرى حقيقتى .. ومن يدرى اذا نظرت أنا الى مرآة الحقيقة ، أى وجه سيطلع لى : وجه انسان

أو وجه ... على كل حال ، ما دمت أنت قد نجحت وأفلحت بعد أن تركتنى ، وصرت فى بضعة شهور من حمار فقط الى حمار « أفندى » ، فكم ترى يلزم من الشهور والاعوام حتى أصل الى ما وصلت أنت اليه ؟ ..

فابتسم راضيا ، وقال مهونا مشجعا :

– لا تستصعب الامور الى هذا الحد ، ولا تستهول المشقة ، ما عليك الا أن تتبعنى وتسير خلفى .. ولكن لن يمضى وقت طويل ، حتى ترتقى وترانى أصبحت « حمار بك » ثم « حمار باشا » ..

– ثم من يدرى .. قد تصير زعيما سياسيا !! .

– هذا أقرب مما تتصور ..

– وعندئذ تطالبنى يا زعيمى بتأييدك على « العميانى » ، و « الثبات على المبدأ » ! ..

– طبعا ..

– فى هذه الحالة تسمح لى أن أرفض مبدأ الثبات وأن أمتنع عن الهتاف وراءك .

– اذا لم تهتف أنت ، فسيهتف حمار آخر .

حمارى وحزب النساء

قال لى حمارى وهو يلمح بعينه فى احدى الصحف خبر تأليف حزب نسائى :

ــ ما رأيك فى الحزب النسائى ؟ •• طبعا لا بد أن يكون لك فيه رأى •• أليس كذلك ؟ ••

فأجبته قائلا :

ــ أمن الطبيعى فى نظرك أن يكون لى فيه رأى ؟ لا بأس ، ليكن الأمر كذلك وأظنه طبيعيا أيضا أن يكون هذا الرأى فى جانب حزب النساء •• ولم لا ؟ •• انى رجل مظلوم ، ولسوف يؤلف عنى كتاب بعد موتى : « توفيق المفترى عليه » • الواقع أنى دائما أتمنى للمرأة تقدما • ولا أختلف معها الا معنى كلمة « التقدم » فهى تفهمها على أنها الجرى فى اثر الرجل واللحاق به • وأنا على العكس أرى الرجل هو الذى يجرى وراء المرأة • فالمسألة فيما يظهر لا تعدو مجرد خلاف فى الرؤية والنظر • وحتى الآن لم يفتح الله على الجنس البشرى بواحد ذى عينين سليمتين ، ليبصر لنا أيهما هو الذى يسير خلف الآخر ؟! ••

ولأسلم على كل حال بنظرية المرأة اثباتا لحسن نيتى •

ولنقل ان الرجل هو المتقدم وانها هي المتخلفة · وتفانيا مني في ارضائها أقول ان هذا التخلف يبدأ منذ نصف مليون سنة ، أي من عصر الكهوف ، يوم كان الانسان الاول يعيش حياة الصيد في الغابات ، تاركا أنثاه في كهفها تعنى بصغارها وتهيء مما صاد لها ولاطفاله طعامهم وطعامها ·· لقد كان هذا التوزيع في العمل بأمر الطبيعة التي زودت الرجل بعضلات قوية للكفاح خارج الكهف ، وحبت الأنثى بالوداعة والرحمة والحنان اللازم للامومة داخل العش ·

ومرت آلاف الاعوام ، وهذا التقسيم في أعمال الجنسين قائم ، وان كان الصيد قد تغير حتى اتخذ اليوم ألوانا جديدة مثل : المال والجاه والمنصب والنفوذ ·· الخ · وتبدلت كذلك الاسلحة ، فذهبت القوس والنشاب وحل محلها سلاح آخر معنوى اجتماعي ذهني تصاد به كل الاغراض ، مما اصطلحنا على تسميته بالعلم والخبرة والقدرة والسياسة الخ ·· كذلك تغير كهف المرأة فأصبح « شقة » نظيفة أو « فيلا » مريحة ، تخطر فيها بأثوابها الانيقة وزينتها البديعة ، وتعنى بتنشئة أولادها على قواعد الصحة الجثمانية والخلقية ··

لم تستطع اذن خمسمائة ألف من الاعوام أن تحدث من التغيير في أوضاع الجنسين أكثر من ذلك · ولقد لبث لكل منهما عالمه المنفصل ومجال نشاطه المستقل طوال هذا القدر الهائل من الاحقاب · الرجل له الخارج والمرأة لها الداخل · وأظن أن نصف مليون سنة مدة كافية لأن تكيف طبيعة الانسان فاذا راق للمرأة اليوم أن تغير طبيعتها · وحلا في عينها أن تعمل ما يعمله الرجل ، فتشتغل بأعمال الخارج وتخوض بنفسها غمار الكفاح في ميادين السياسة والجاه والسلطان ، فذلك موكول اليها ، وكلنا نرحب به ، بل اني أناشدها أن تسرع منذ الآن · ولتبدأ من البداية في الحال ، حتى لا تضيع وقتا على من سوف يأتي في المستقبل من أجيال ··

والاقتراح العملي لتحقيق ذلك ، هو أن نبادر من فورنا فنرسل حضرات سيدات الحزب النسائي الى مجتمع فطرى يشابه مجتمع الانسان الاول · وأظننا نجد مثل هذا المجتمع الآن في غابات أواسط أفريقيا · هناك نترك البعثة الكريمة

لتضع أساس الحياة المنشودة • وعليها أن تعيد توزيع العمل من جديد على الوضع العكسى ، فتتولى هى القيام بأعمال الصيد فى الغابات ، وتدع للرجل العمل داخل الكهوف •• ولننتظر نصف مليون سنة أخرى ، وهذا ليس بكثير ، حتى تتوالد أجيال جديدة من النساء المكافحات ، يرفعن رؤوس أجدادهن ، ويسطرن بمداد الفخار مبادىء الحزب النسائى الموقر ! ••

***

على أنى أخشى أن يرى الحزب النسائى أن اقتراحى هذا غير عملى ، فمن الواجب اذن أن نفكر فى حل آخر ••

قد تقول لى بعض النساء المحترمات : لماذا لم نجرب ونسمح لهن منذ الآن بمقاعد فى البرلمان ؟ •• أنا شخصيا لا أرى مانعا من اعطاء المرأة حق التمثيل السياسى فى مجلس النواب «بالطبع جميع النساء متنازلات مقدما عن حقهن فى مجلس الشيوخ » • وزيادة فى تسهيل الامر على اخواننا المحافظين المتعنتين من الرجال أقترح الأخذ بمبدأ ان « للذكر مثل حظ الانثيين » ، فيكون لكل امرأتين صوت واحد •• وأرجو من السيدات أن يتساهلن فيقبلن هذا الشرط مؤقتا ارضاء لغرور الرجال • وانى على أتم استعداد لمعاونة المرأة والمطالبة معها بهذا الحق على هذا الأساس •• الا اذا اعترض حزبهن الموقر بأن هذا الرأى أيضا غير عملى ، بحجة أن اشتراط صوت لكل امرأتين يتطلب وجود امرأتين فى البرلمان يمكن أن تتفقا على رأى واحد • وهذا بعيد الاحتمال ••

***

مهما يكن من أمر ، فانى راغب من كل قلبى فى منح المرأة حقوقا سياسية مساوية لحقوق الرجل ، وأرجو أن أعيش حتى أرى اليوم الذى تتبوأ فيه نساؤنا مقاعدهن تحت القبة •

وهنا فليسمح لى بسؤال : هل ستكون لهن مقاعد خاصة باعتبارهن حزبا منفصلا قائما بذاته ، أو أنهن سيدخلن على مبادىء أحزاب الرجال المعروفة ، ويمتزجن بها ، كل واحدة ضمن الحزب الذى يرشحها ؟ ••

اذا كان الأمر الاول ، فلا شك أن حزبهن المستقل سوف يكون فى الشؤون النسوية صاحب الكلمة التى لا تعصى ولا ترد • فاذا اقترح الحزب النسائى مثلا اعفـــاء « البودرة »

و « الروج » و « الجوارب » من كل ضريبة جمركية أو تجارية ، فان هذا الاعفاء نافذ بدون كلام ، والرجل الذى يجرؤ على المعارضة يكون مستعدا لنكد الدنيا يهبط على أم رأسه ، لا فى البرلمان وحده ، بل فى بيته من زوجته أو أخته أو ابنته ·· أما اذا كان الامر الثانى ، فانى لا أرى فائدة كبرى تعود على المرأة منه · وأخشى مخلصا أن تطويهن مطامع الاحزاب الاخرى ، فلا ينتفعن لأنفسهن بشىء ·

***

لى بعد ذلك ملاحظة شكلية يجب أن توضع موضع الاعتبار : لقد عاب أحد الشيوخ المحترمين على النساء الموظفات حرصهن على زينتهن · وأنا لست من رأيه · اذ ما دمنا قد سلمنا للمرأة بحقوقها فى الوظائف العامة ، فلا بد لنا من السماح لها باستعمال حقها الطبيعى فى « الاحمر والابيض » ·· وما أحسب أحدا من زملائها فى البرلمان يثير هذا الاعتراض يوم تتخذ مكانها فيه ، فان الوجه النظيف والتزين اللطيف من أبلغ حجج المرأة · وليس من الانصاف أن نحرمها سلاحا من أسلحة بلاغتها المأثورة فى ساحة يتذرع فيها كل عضو بكل أدوات الفصاحة والاقناع

●●●

وأخيرا ، يا حمارى العزيز فانى ألخص لك رأيى فى كلمة واحدة هى : موافقتى التامة على وجود المرأة فى البرلمان وفى كل مكان الى جانب الرجل لأن مجرد وجودها يحدث نشاطا فى الهمم وتألقا فى الافكار ··

لقد قلت ذات مرة : « ان المرأة مثل القمر (أقصد معناه الفلكى لا الشعرى) فهى لا تشع ضوءا من داخل نفسها ، بل تعكس الضوء الآتى اليها من شمس عقل الرجل · هى كالقمر كائن سلبى ، وسطح معتم فى ذاته لا تسطع الا بما ينعكس على قلبها ورأسها من تفكير الرجل واحساسه ·· فدنوها منه فى مجال العمل المنتج ، له من الفائدة ما يعادل فائدة المرآة الى جانب المصباح ·· انها تضاعف نوره ، وتزيد اشعاعه ·

أما أن تنتظر منها أكثر من ذلك فهو انتظار للمستحيل · لن يكون للنساء فى مجالسنا النيابية والاجتماعية أكثر مما للمرايا بجوار المصابيح فى القاعات والصالات ·· ولقد بلغنا ولا شك فى الحضارة حدا يقتضى أن نزين جدراننا بالبللور !! ·

حماري والنفاق

قال لي حماري ، وقد رآني أتهيأ للسفر ذلك الصيف الى رأس البر : أتذهب وحدك ؟ فخجلت منه ودعوته • لأن الوفاء يأبى أن أتركه يصلى حر القاهرة وأمضى أنا بدونه الى المصايف •• ولقد نزل مثلي ضيفا معززا مكرما على « عشة » أحد الاصدقاء ، وأفرد له مكان بجواري • وأصبح ينعم بهواء البحر مثلنا • ويذهب معنا كل صباح الى « خيمتنا » التى نصبنت على الشاطيء • وينظر كما ننظر الى أفواج المصيفين والمصيفات تغدو وتروح بألوان ثيابها الزاهية المختلفة ، كأنها معروضات الفترينات قد وضعت فيها محركات تسيرها أمام أعيننا فوق الرمال •• وكان يحلو لي أن أغرق صامتا في مقعد بحرى طويل مريح • وكنت قد أوصيت حماري بالسكوت • فنحن هنا للراحة لا للكلام • وقد أذعن لرجائي فلم ينبس بحرف • الى أن جاء ذات يوم الى « البلاج » رجل من معارفنا له جسم قد ترهل وكرش قد برز كأنه فنطاس « غاز وهو يرتدى « الشورت » مع قميص قصير الاكمام ، فقلت له :

ــ يا لك من رشيق ! يا لها من رشاقه ! ••

وهنا لم يتمالك الحمار وهمس قائلا :

ـ أحقا تراه كذلك ؟ ..

فقلت بصوت مرتفع سمعه الرجل مغتبطا :

ـ طبعا أراه كذلك .. ولماذا لا أراه كذلك ؟! .

فهمس الحمار لى وهو يتأمل قوام الصديق وقده من رأسه الى قدمه :

ـ كيف لا أرى أنا ما تراه أنت ؟ ..

فقلت له مغتبطا :

ـ لأنك أنت حمار ..

فأجابنى هامسا :

ـ ولماذا لا تقول لأنك أنت منافق ؟!

وكان الصديق قد ابتعد ولحق بمضيفى ، ولقد اطمأن الى حسن منظره ، وسارا معا على الشاطىء ، وبعد أن يئسا من ذهابى معهما ، فأنا لاأحب المشى . وانفردت بحمارىأصيحفيه :

ـ أنا منافق ؟! ..

ـ مهلا .. مهلا .. أنا لم أقصد اهانتك ..

ـ افهم أيها الحمار أن هذا ليس نفاقا ولكنها مجاملة .

ـ مفهوم .. انها مجاملة .. والمجاملة هى النفاق الصغير .. هى كالجحش بالنسبة الى الحمار ، ومع ذلك فأنا لا أستهجن النفاق على الاطلاق . انى تأملت نفسى ذات يوم وتأملتوقلت : ما الفرق بيننا معشر الحمير وبينكم معشر الآدميين ؟! نحن نأكل الفول ، وأنتم تأكلون الفول .. واذا كنا نحن نحبه ممزوجا بالتبن أو النخالة وأنتم تحبونه بالزيت أو بالزبدة . فتلك مسألة مزاج .. ولا يجب أن نسميه فرقا جوهريا . انما الفرق الأساسى حقا بيننا وبينكم : هو انكم تعرفون « النفاق » ونحن لا نعرفه .. وقد عللت نفسى ومنيتها بحلم جميل هو أن تتاح لى الفرصة أن أرجوك يوما وأتوسل اليك أن تعلمنى النفاق ...

ـ عجبا .. من علمك هذا الاسلوب الهازىء ؟! .

ـ انى لست أهزأ .. انى أقول الجد . تلك عقيدتى : لو أمكننى تعلم النفاق وادخاله فى فصيلة الحمير لانقلبنا مخلوقات مثلكم . انى مؤمن كل الايمان بهذا المبدأ ، وانى أعمل سرا على

تنفيذه منذ زمن · فلا تقف في وجه مطامعي وآمالي · خذ مني كل شيء واعطني النفاق ! ··

ـ ماذا جرى لك ؟ هل جننت ؟ هل أثر في رأسك هواء البحر النقي وطعام مضيفنا الشهي ؟! ··

ـ رأسي بخير ·· ولقد سألتك شيئا سوف يحدث انقلابنا في تاريخ بني جنسي ، ولكنك تبخل به علينا وتضن · فلن ألح أو أثقل عليك بعد الآن في الطلب ! ·

ـ أمرك غريب ·· أبخل عليك بماذا ؟ أهو شيء عزيز نفيس استكثره على مثلك ؟ ·· هذه أول مرة أسمع فيها ان للنفاق قيمة يحرص عليها الانسان ! ··

ـ أما أنا فقد سمعت ان « النفاق » له قيمة كبرى في الاسواق العالمية · وان أجود أنواعه في مصر ، كما يوجد فيهـــا أجود أنواع القطن ·

ـ يظهر انك استقيت معلوماتك من مصادر خبيرة ·

ـ لقد قيل لي ان « النفاق الطويل التيلة » ··

ـ ماذا تقول ؟! ··

ـ نعم ·· انه كالقطن ، ألا ترى هذا ؟! ولعل السبب في تفوقه وتميزه بطول تيلته أنه يمتد الى الطرفين : الفرد والمجتمع · فمثلا من الجائز أن يعتنق الفرد رأيا مخالفا للجماعة فتنهض ضده الجماعة فيقبع في داره صامتا ·· وهذا ما يحدث في كل بلد آخر ·· أما هنا فيحدث غير ذلك · فقد أخبروني ان أفرادا قاموا ينادون بأفكار حرة فاتهمهم الناس بالالحاد · فلم يكتفوا بالصمت ، بل قاموا في اليوم التالي يحملون المسابح الكهرمان ويرتدون العمائم ، العمائم الخضر ، وآخرون عرفهم المجتمع من أهل الخمر والسكر فلم يكتفوا بالتوبة الصامتة بل راحوا يتزعمون حركات الحض على الورع · ونساء يرتكبن في السر الفجور وينادين في العلن بالفضيلة · وسياسيون قد خلق الله لكل منهم وجها واحدا فصنعوا هم لانفسهم وجوها عدة يستقبلون بها كل حكومة تقوم أو كل أزمة وزارية تطرأ · وأسر وعائلات توزع فيما بين أعضائها المبادىء والاحزاب ، كما يوزع الله بين عباده القسم والارزاق · ومرؤوسون يداهنون الرؤساء على حساب الدولة ، ورؤساء يراؤون الشعب على حساب المصلحة ·

وسيدات يردن العبث واللهو فيقلن للناس أنه البر والخير .
وأهل دين يملؤن الصحف ضجيجا حول الاخلاق ويدقون طبلا ضد الرزيلة وما يقصدون فى سريرتهم غير التظاهر والاعلان .
ورجال تقوى يأمرون الناس بالعفة ويستثنون أنفسهم وذويهم .
هذا بعض ما يتعلق بالطرف الاول وهو الفرد .. أما الطرف الثانى وهو المجتمع فله نفاقه أيضا .. فقد بلغنى فى ذلك أنه ما من مجتمع فى غير مصر يستقبل المجرم الخارج من السجن بالموسيقى والمزمار كما يستقبل الحاج القادم من الحجاز ! .
وهذا المجتمع يشمئز من اللص والآثم والشرير والفاجر ، ولكن لو ابتسم الحظ لواحد من هؤلاء فنال سلطة ، أو أصاب ثروة ، فسرعان ما يبتسم له المجتمع أيضا ويستقبله استقبال الامجاد الابطال ، بل ان المجتمع ليعرف التاريخ المخجل لهذا المليونير والماضى المزرى لذاك السياسى فلا يمنعه ذلك من حملهما على الاعناق ، هكذا يرائى المجتمع الفرد ، ويداهن الفرد المجتمع .
ولا يدرى أحد أيهما مصدر « النفاق » . لذلك قيل ان النفاق يصل أحدهما بالآخر ، فلا نعرف أى الطرفين مصدر الآخر ..
وكل الذى نعرفه ان النفاق ممتد بينهما يربطهما بخيوطه المتينة .
وهذا سر وصفه بالتيلة الطويلة .. فما قولك فى هذا ؟ وهل ترانى ألممت بالموضوع ؟ ...

— انى أراك بحرا فياضا ، وأدهش كيف تسألنى أن أعلمك النفاق وأنت واسع الاطلاع فيه على هذا النحو ؟! ..

— لا موجب للدهشة .. فأنت تعرف ان العلم النظرى شيء ووسائل التنفيذ شيء آخر .. فكل بلد يدرس تاريخ الثورة الفرنسية ، ولكن ليس من السهل أن تحدث ثورة فرنسية فى أى بلد ؟! وأنا كذلك درست تاريخ نفاقكم ولكن ليس من اليسير أن أحدث مثله فى مجتمع بنى جنسى ! ...

— لست أرى فى الامر صعوبة . انه فى غاية البساطة .. أنا مثلا صاحبك الذى تخافه وتهابه ، ولك عنده مصالح ومآربه ... أنظر الى وجهى ... ألا ترانى جميل الصورة ؟ ..

— أبدا ...

— لا تنظر بعين رأسك ، أنظر بعين مصلحتك ! ..

— لست أعرف لى سوى العين التى فى رأسى .

ـ هذه العين أفقأها اذا كنت تريد أن تتعلم النفاق ! ..
ـ أفقأ عيني وأصير أعمى ؟! ..
ـ هذا هو الشرط ؟ ..
ـ وبماذا أرى الاشياء ؟ ...
ـ بعينك الاخرى .. عين ما تريك ...
ـ اذن لو أردت ادخال النفاق في مجتمع بني جنسي ، ينبغي لي أن آمر جميع الحمير أن تفقأ عيونها التي في رؤوسها ؟ ..
ـ في الحال ...
ـ وأن تحول مجتمعها الى مجتمع من العميان ؟! ...
ـ بالضبط ..
ـ وهل تظن دولة الحمير تقبل ذلك ؟ ..
ـ ولم لا ؟ .. اذا كنا نحن قد قبلناه ...
ـ اسمح لي أن أقول لك ...
ـ صه .. أعرف ما ستقول ولا داعي للاهانة ! ...

وهنا كان الصديقان قد أقبلا عائدين .. فأومأت الى حماري بالصمت وغمزت له بعيني رأسي وأنا أقول مشيرا الى صاحبنا المترهل منشدا :

أهلا وسهلا بالرشاقة كلها .. « بالشورت » والاكمـــام فوق الكرش ! ...

حمارى والكفاح

قال لى حمارى وقد ذهبنا نمضى الشطر الاخير من الصيف فى الاسكندرية ، ونتنعم ساعة الأصيل بالسير الهوينا على « الكورنيش » ..

ـ الحق انى مغتبط ها هنا .. أين المشى المريح فوق هـــذا الاسفلت الناعم من المشى فى رأس البر فوق الرمال التى كانت تغوص فيها حوافرى ؟ ..

ـ صدقت ..

ـ انى أراك لا تكره المشى هنا ..

ـ أصبت ..

ـ عجبا ! ما بالك ساهما مطرقا ؟ ..

ـ أسكت !! انك تحرجنى مع أصدقائى . كلما مشيت مع صديق فى الطريق ظن الناس انه حمارى ! ..

ـ وما ذنبى أنا اذا كان الناس يريدون أن يتملقوا أصدقائك ؟!

ـ اغلق فمك من فضلك ، ودعنى أنس وجودك الى جانبى لحظة !! ..

ـ سبحان الله فى طبعك . ما هذا المزاج العكر والهواء جميل

خال من الرطوبة هذا العام ، والبحر صاف ، والغيد في الاسكندرية حسان .. والنساء في السراويل والبيجامات بأحمرهن وأبيضهن كأنهن جوقة « بلياتشو » في « سيرك » متنقل ! ..

ـ صه .. لا تحدثني عن النساء ! ..

ـ ألست أنت الذي دعاهن الى ارتداء هذه السراويل ؟! .

ـ تلك فكرتك أنت أيها الحمار ! ..

ـ أيعقل أن تخطر ببالي أنا فكرة حشر مثل هذه الاجسام البضة المائعة في هذا النوع من الثياب ؟ أنظر الى هذه المرأة البدينة وقد صرت لحمها المترهل صرا في البنطلون ، وهو يأبى أن يتماسك فصارت كأنها طبق « ألماظية » متفكك سائل ! ..

ـ لا تبالغ ..

ـ أنظر بعينك .. ما عليك الا أن تنظر الى هذا السرب السمين ..

ـ أنا لا أنظر اليهن قط ..

ـ يا للعجب ! ما من مرة خطرت قربنا حسناء الا ورأيت عينك تكاد تأكلها أكلا بلحمها وعظمها وثوبها ! ..

ـ كذاب ! ..

ـ أتقسم ؟ ..

ـ أقسم أني لا أنظر غير نظرة خاطفة ، وهذا حقي شرعا كما هو وارد في كتب الفقه والدين . فقد جاء فيها : « لك في الشرع نظرة واحدة لاحتمال أن يكون القادم أسدا » .

ـ وهل من المحتمل أن يقبل علينا أسد في هذا الكورنيش ؟!

ـ اخرس يا حمار ولا تجادلني ! ..

ـ هذا ليس جوابا مقنعا .

ـ افهم ان لكل زمان مخاوفه ، ولكل مكان مخاطره ، وتلك كانت المخاوف في عهد العرب والبادية والصحراء . أما في عصرنا الحاضر فقد تغير نوع الخطر ، وان لم يتغير المبدأ . فبدل الوحش الهاجم أصبحت السيارة المسرعة ..

ـ لست أرى سيارة أمامنا ، ولكن أرى دبابة ..

ـ دبابة ؟! أين هي ؟ ..

ـ تلك المرأة المقبلة . فلنخل لها الرصيف ولنهبط الى الطريق ،

اذا أردنا لأنفسنا السلامة ! ..
ـ هذا أيضا كما ترى نوع من مخاطر العصر الحديث ! ..
ـ والكواعب الفاتنات ، كأنهن نسيم البحر ، أعارته يد السحر . أردية من أجساد الحور الخالدات ! ..
ـ ما شاء الله ! .. الحمار انقلب شاعرا ! ..
ـ أجب ولا تراوغ .. ماتقول فى هذه الباقة المقتربة من الفتيات ، ذوات المناديل الدمسقية المختلفة الالوان فوق شعورهن ، من هو البستانى العبقرى الذى نسق هذا البهاء ؟ أهى المصادفة التى جمعت بينهن على هذا النحو ؟ أم هو التدبير السابق فيما بينهن ، والاتفاق المبيت على أن يصبحن على الناس متفتحات فى هذه الالوان الزاهيات ؟! تكلم .. انطق ! ما هذا السكوت ؟
ـ هذا كذلك خطر من صنف آخر ..
ـ بل هى متعة .. بل هى فتنة .. بل هو النعيم ..
ـ عجبا ! .. ماذا جرى لك أيها الحمار ؟ .
ـ يا الهى .. ما الذى صنعت فى عامى من جلائل الاعمال لأستحق هذا « التصييف » البديع ! ..
ـ ما هذا القول السخيف ؟ أو كل هؤلاء « المصيفين » قاموا فى عامهم بأعمال يستحقون من أجلها هذه الراحة الناعمة ؟ .
ـ لست أتكلم عن هؤلاء « المصيفين » ، انما أتكلم عن نفسى ، بصفتى حمارا من أسرة الحمير .
ـ أنعم وأكرم ! ..
ـ لا تهزأ بى ، ولابجنسى ، بل أهزأ أولا بنفسك وبجنسك ! فنحن فصيلة قد اشتهرت بالكد والجد . لقد عرفت ظهورنا أشق الاعمال ، ولم تأنف من حمل أخس الاحمال . ما من ظهر فينا رفض « غبيط » السماد ، وما من واحد بيننا تذمر من كثرة العمل وطول ساعاته . أو من رداءة العلف وقلة دسمه . ما نحن الا الجلد والعزم والصبر قد صورت مخلوقا حيا ، لنكون قدوة لأمثالكم من الكسالى والمترفين ؛ ولكنكم لا تبصرون ولا تريدون أن تفتحوا أعينكم حتى على خيبتكم الماثلة ! ما من واحد فيكم يريد أن يعرف ليستحق لقمته . موظفكم ينظر الى ساعة الانصراف ولما يبدأ فى العمل ، ويهمه المرتب والترقية ولا يعنيه الانتاج ، فاذا نقل الى « الصعيد » هاج وماج . وطلابكم يريدون

أن يجتازوا الامتحانات بغير درس ، ولا يعنيهم العلم فى ذاته ، بل يطلبون شهادة تغطى فيهم الجهل وتفتح لهم الخزائن وتصعد بهم الدرجات وعمالكم يفكرون فى زيادة الاجور وانقاص العمل ولا يهتمون بالاتقان ولابمصالح « الزبون » . ورؤساؤكم يعنيهم أن ينشر عنهم أنهم قاموا بكذا ونهضوا بكذا ولا يهمهم بعد ذلك قيام حقيقى أو نهوض . وشبابكم أصبح مثله الأعلى يتلخص فى كلمتين : « سيارة وفتاة » ، ولا يعنبه كيف يحصل عليهما ، بل كل أمله وهدفه أن يظفر بهما من غير جهد ولا جهاد . ان شعار الكثيرين فيكم اليوم هو : « ان السماء يجب عليها أن تمطر ذهبا وفضة ونحن قعود ! » .. الحلم الذهبى للجميع الآن هو الثراء والاثراء بغير مجهود . ان الحرب قد حققت بالفعل لبعضكم هذا الحلم ولكن .. ماذا أنتم صانعون فى زمن السلم ؟ بأى سلاح تواجهون التنافس العظيم على الانتاج والصراع الشديد على الارزاق ؟ أبمبدأ « الجهد الادنى والغنم الأسنى » الذى اعتنقه الكل فيكم من شبابكم الى شيبكم ؟! .

— حقا تلك مشكلة لا أدرى لها حلا ! ..

— حلها بسيط ..

— ما هو ؟ ..

— أن تعتنقوا مبدأ فصيلتى : « لا راحة بغير عمل ، ولا لقمة بغير عرق ، ولا ثروة بغير انتاج » ! ..

— نعتنق مبدأ الحمير ؟! ..

— ولم لا ؟ ..

— فى الحق ان التطاحن فى الغد هائل ، وأن حرب السلام ستكون علينا أشق وأعنف من حرب الدماء . ولقد أردنا أن نجنب أنفسنا الويلات فى كل ميدان ، وأن نهرب بجلدنا من وخزة الدبوس ولذعة « الناموس » ولكن ..

— ولكن آن الأوان لتعرفوا معنى الصبر والجلد والعمل .

— سنعرف ، وسترغمنا الحياة غدا على أن نعرف .

— اليوم خمر وغدا أمر ، هلم بنا الى ستانلى وسيدى بشر وجليم ! ..

— مهلا .. ضميرى غير مستريح . وأنت المسئول . ماذا قدمنا من عمل فى عامنا لنكون جديرين بهذا اللهو والمرح ؟ .

ـ قدمنا ..

ـ كم « غبيط » من السماد حمل ظهرك ؟ ..

ـ أنت لا تعرف أنى لا أحمل اليوم سمادا بل أفكارا .

ـ يا له من تدهور !! ..

ـ لا تدهور ولا تقدم ولا تأخر . ما الافكار سوى نوع من السماد . وحامل الافكار كحامل السماد . وما أنت فى الحقيقة غير نوع من .. الحمير !! ..

ـ أشكرك ! ..

حمارى والطغيان

جعل حمارى يحدثنى ذات مساء فى الطغيان والطغاة ، ويسترسل فى الحديث .. وأنا عنه لاه كالنائم ، وما أنا بنائم . فلقد انتزعنى خيالى وطار بى وألقانى فى أساطير الماضى : بين يدى « شهرزاد » .. وأنا أعرف شهرزاد كل المعرفة .. وقد أبرزتها فى كتاب .. آه ! .. يا لها من امرأة ! ..

شهرزاد ! .. اذا إنفرجت شفتاك عن هذا الاسم ، فاعلم انك لفظت باسم عظيم ، فهو اسم تلك التى استطاعت أن تجعل من شهريار ، سافك الدماء ، رجلا مهذبا محبا للخير مترفعا عن العدوان . لقد دخلت حياة ذلك الملك الطاغية كما تدخل الروح الطيبة جسدا أصم ، أو الريح المخصبة واحة مقفرة . واهتدى شهريار بهديها ، وتمت بذلك معجزتها ، فانزوت فى بطون الأساطير ..

ولكن فى هذا العصر عاد شهريار جديد الى الظهور ، لا فى صورة ملك بل فى صورة (فوهرر) يقطن قصرا لا فى بغداد ، بل فى برختشادن . وهو لا يكتفى بذبح عذراء فى كل صباح ، كما كان يفعل شهريار الاول ..

بل ان « حمام الدم » الذى لديه أرهب وأروع ! ..

وشرد بى الخيال فتصورت شهرزاد تستشيرني بصفتي مؤلفها في أن تذهب الى الزعيم العصرى كما ذهبت من قبل الى ملك الزمان الغابر لعلها تظفر بهدايته ، كما ظفرت بهداية سلفه ، ولعلها تنتشله من الطغيان ، وتربحه لخير بني الانسان ، فحمدت لها عواطفها الرقيقة ومشاعرها النبيلة ، ولكنى ترددت اشفاقا عليها وقلت :

ـ أيتها العزيزة شهرزاد ! جعلت فداك ، لقد خطر ببالى كل ما خطر لك • ولقد رأيت من واجب الكاتب أن يجهر بما يعتقد ، فرسمت « لصاحبنا » من الصور ما سوف يعرض عنقى لمديته ، ولسوف أدعى الى حمام الدم وأنا لا أعرف السباحة • فيكون هذا حمامى الاول والاخير ، أما أنت يا ذات الجمال • يا من اعتدت السباحة بجسمك العاجى فى ذلك الحوض من المرمر القائم فى قصرك العجيب ! ••

فقاطعتنى شهرزاد قائلة :

ـ أتخشى علي وأنا الخالدة ؟! خف على جلدك أنت أيها المخلوق الهالك ! أكبر ظنى ان اشفاقك هذا ليس على شخصى بالذات ، انما هو على كتابك عنى الحامل اسمى الذى سوف يحرق ويباد اذا فشلت فى مهمتى ووقع بينى وبين هتلر العداء • يا لهؤلاء الأدباء والكتاب ! انهم يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد كتبهم أكثر مما يخافون على جلد أجسامهم ! ••

وتركتنى بلا تحية ولا وداع ، واختفت عن بصرى ، وارتفعت فى الفضاء ومضت الى قصر « برختشجادن » •

***

كان هتلر فى ذلك المساء منفردا فى قاعة كبيرة من قاعات القصر ، يطيل التأمل أمام خريطة حربية ، وقد شرد ذهنه واتجهت عيناه الى نافذة بلورية تشرف على الوديان الخضراء المحيطة بذلك الجبل الذى يقوم عليه قصره المنيع • واذا هو فجأة يسمع خلفه حفيف ثوب وهفيف غلالة حريرية • ويشم عطرا شرقيا ملأ جو المكان ، فاستدار • فألفى نفسه وجها لوجه أمام امرأة لم يقع بصره قط على أجمل منها •• فعقد لسانه وجمد فى مكانه ، ومرت لحظة أو لحظات •• ثم أفاق قليلا وقال لها كالهامس :

فقالت الجميلة :

ـ من أنت ؟ ..

ـ أنا شهرزاد جئت اليك من الشرق .

وكأنما غمر هتلر فى حلم ، فاذا هو لساعته يحس الاشياء من حوله تخف وترتفع قليلا فى الهواء . وحلت عقدة لسانه . وتحرك من مكانه ، وخف لاستقبال شهرزاد وكأنه يعرفها معرفة الاصدقاء منذ أعوام ، وأجلسها فى صدر القاعة ، وأراد أن يقدم اليها من الطعام والشراب ما يقدم الى الاضياف الكرام . فأبت وشكرت ، وأشارت اليه بالجلوس والاصغاء ، قائلة :

ـ فلأخبرك أولا سريعا ، لماذا جئت اليك ، ان مقابلتنا الساعة قد يتوقف عليها مصير العالم .

فقطب هتلر جبينه وزالت عنه قليلا غمرة الحلم وقال :

ـ جئت فى مهمة سياسية ؟ فهمت ، ما أجملك رسولا من الدول الديموقراطية ! انها لشجاعة منك أن تقودى طائرة بمفردك ! أين هبطت يا سيدتي الطائرة التى جئت بها ؟ ..

ـ أية طائرة ؟ ..

ـ عجبا ! كيف جئت اذن ؟ ..

ـ قلت لك أنا شهرزاد . شهرزاد الاساطير ، شهرزاد التى طالعت خبرها ، ولا ريب ، وأنت صغير . وأنا بالطبع لا صلة لى بالديموقراطية أو الفاشستية ، لانى كما تعلم أنتمى الى زمان لا يعرف هاتين الكلمتين . انما أجىء اليك اليوم بصفتى الشخصية . كما جئت من قديم الى الملك شهريار ، فلبثت عنده ألف ليلة وليلة ، أقص عليه من ألوان القصص ما غير نظره الى الحياة .

فقاطعها هتلر قائلا : وهو ينظر الى خريطته الحربية :

ـ ليس لدى وقت للاصغاء الى القصص .

ـ هذا من سوء الحظ ..

قالتها شهرزاد بنظرة لم تصمد لها عيناه ، فأطرق قائلا :

ـ ربما كان هذا من سوء حظى حقا ، فأنت امرأة جديرة أن يجلس اليك رجل أكثر من ألف ليلة وليلة . ولكنى .. مشغول كما ترين . ولا أحسبنى أملك الاصغاء اليك أكثر من ليلة . ان العصور قد تغير أحيانا فى جلسة واحدة بقاعة مؤتمر أو

مقصورة قطار ... أطرقي ياسيدتي الموضـوع من بابه ..
وأوجزي ! ..

لم تيأس شهرزاد من هذه اللهجة الجافة . وقالت مترفقة :

ـ اطمئن ! انى لا أجلس الى أحد رغما عن ارادته ، وانى لقدرة قيمة وقتك الثمين الذى تنفقه فى .. فى .. هدف لا أقرك عليه ، وقد أكون مخطئة .. ثق انى غير مقيدة برأى .. غير متعصبة لمبدأ .. انى حرة حتى الآن مثل هذا الهواء ، وقد جئتك لأقنعك بما أرى ، أو لتقنعنى بما ترى .. فليكن بيننا الساعة صراع هادىء بين روح المبادىء ... هل قبلت ؟ ..

ـ قبلت ..

قالها هتلر مبتسما وقد طمع فى اقناع شهرزاد ، وأمل أن يربحها هو الى جانبه . ومن يدرى ؟ لعله يستطيع أيضا بعد ذلك أن يلحقها بوزارة دعايته تحت ادارة الهر جوبلز ، ليس بينه اذن وبين تحقيق هذا الأمل سوى أن يقنع شهرزاد بآرائه .

هنا رفع رأسه مستبشرا . ومر بيده على خصلة شعره المتهدلة على جبينه كأنها جناح غراب وقال :

ـ سوف أقنعك بمبادئى ..

ـ بغير عنف ؟ ...

ـ بغير عنف ..

ـ انه ربح لا يستهان به أن تسمح بحرية الرأى والكلام والمناقشة !! ولو الى أجل قصير ! ..

قالتها شهرزاد بابتسامة ذات مغزى . فأدرك هتلر لساعته أنه يكاد يقع فى فخ هذه الشرقية الجميلة ، فليس هو الذى قد يكسبها ويجذبها الى النازية . ولكن الخوف أن تجذبه هى بغير أن يشعر الى روح الديموقراطية ، فتجهم وجهه . وعادت اليه من الفور طبيعة الجبروت ، فضرب المائدة بقبضته وصاح :

ـ كلا ... لست أسمح هنا على الاطلاق بحرية الرأى أو روح الديموقراطية ، وأرجو منك أن تكفى عن ذكر مثل هذه الالفاظ اذا أردت أن نتفاهم ! ..

فابتسمت شهرزاد وقالت متلطفة :

ـ وكيف نتفاهم بغير حرية التفاهم ؟ ماذا تخشى منى وأنا أحادثك على انفراد . والابواب مغلقة ، ولا يسمع أحاديثنا أحد

من شعبك ، اذا لم تنطلق الى الحرية السانحة في محادثتك ، فمعنى هذا انك تخشى أن أقنعك ؟ .

— كلا ، لست أخشى شيئا ، تحدثي بكل ما تريدين .

قالها وهو يتلفت يمنة ويسرة ليتأكد من أن الحيطان ليس لها آذان . واعتدلت شهرزاد في جلستها وقالت :

— انى لا أحب العنف فى الاقناع ، لا لأنى ديموقراطية النزعة ، فأنا كما قلت لك لست أنضوى تحت حزب من الاحزاب ، ولكن تلك طبيعتي منذ القدم ، انك ولا شك تعرف قصتى مع شهريار ، هل تذكر أنى لجأت الى العنف في اقناعه ؟ ..

— أشهد أنك كنت بارعة ، ولكن ذلك لا يمنع من القول انك كنت امرأة خطرة ، لقد كنت أنت — ولا تؤاخذيني — الخليقة دون غيرك بحمام الدم ، فان المرأة التى تستطيع أن تحول ملكها عن سياسته ، وأن تغير نظام حكمه في دولة ولو الى الاصلح ، لهى على كل حال امرأة ثائرة على النظم ..

— انى لم أكن ثائرة ، ولم أتدخل يوما في سياسة شهريار ، ولم أنصحه يوما بابرام أمر أو الاقلاع عن فعل ، انما دخلت حياته كبصيص النور الضئيل المتسلل من خصاص الابواب ، فاذا هو يرى ما لم يكن يرى ، واذا هو يصلح نفسه بنفسه ، ويتحول من حال الى حال ، ومن سياسة الى سياسة من تلقاء ذاته ..

ففكر هتلر لحظة ثم قال :

— ألم تكن هناك مؤامرة من الشعب ؟ ان شهريار كان يدخل كل ليلة بعذراء يقتلها فى الصباح حتى كادت تنقرض من بلاده العذارى ، فلا بد أن الشعب ضج وغضب وتهامس وتآمر .. اعترفى .. ألم تكونى موفدة من قبل الجماهير ؟ ..

— كلا ! ..

— من يدرى . لو كان لشهريار ((جستابو)) فى ذلك الحين لتدارك الخطر قبل وقوعه .

— الحمد لله اذ لم يكن لديه ذلك .. لو أن هذا حدث لما كان .

— لما كان اسم شهرزاد ظهر فى سماء التاريخ ، ولما عرفت الاجيال غير اسم شهريار وحده ! ..

— دعنا من التاريخ . انما الذى يجب أن تحفل به هو الانقلاب

الطيب الذى حدث لذلك الملك • انه ولا شك قد رضى عن نفسه كل الرضا يوم رأى الاشياء كما ينبغى أن ترى ••

سكتت شهرزاد وحدجت الفوهرر بنظرة طويلة •• فخفض بصره قليلا وأطرق ، ثم قال :

— ان لك يا شهر زاد أسلوبا عجيبا فى الكلام • انك تريدين أن تلقى فى روعى ان هنالك أشياء عظيمة ترينها أنت ولا أراها أنا •• وتحاولين أن تدخلى فى نفسى الشك فى مبادئى •• ولكن فاتك انى أضع العقل دائما فى المحل الثانى ، والفكر فى المقام الثالث • أما المكان الاول عندى فهو للايمان •• انى أؤمن وأنا مغمض العينين موصد الاذنين مغلق العقل • أو من مبادئى وحدها ، أومن وأومن ثم أومن • تكلمى بعد ذلك بما شئت ••

فابتسمت شهرزاد ، ثم قالت فى دهاء :

— من قال لك انى أريد أن أهز ايمانك بمبادئك • انى جئت لأقنعك أو لتقنعنى • وقد أفشل أنا معك ، وقد تفشل أنت معى • انى تواقة الى الحرية ، حرية البشر أجمعين ، ولقد ذهبت الى شهريار عندما رأيت حرية الشعب وبنات الشعب فى خطر • مبدئى هو الحرية لكل انسان ، ولا استعباد لأى انسان • فمن كان يعمل لهذا المبدأ فأنا معه ، سواء كان أنت أو خصومك ، هذا قولى فأغمض عينيك عنه ، صم أذنيك اذا شئت وأغلق فكرك ، ولكنى أنا فاتحة عينى وأذنى لأتلقى عنك ما تقول ، وأزن ما تدلى به ، وأتقبل الطيب من حديثك اذا وجد • ولا أكره أن أقتنع بمبادئك اذا كانت نافعة للناس • فان المكان الاول عندى دائما هو للفكر الحر ، والاقتناع المطلق ، ثم الايمان بعد ذلك • تكلم فأنا مصغية اليك •

واتكأت شهرزاد بساعدها على حافة المقعد ، وغرقت فيه ، ورنت الى هتلر بعينيها الصافيتين العميقتين • فاختلج قلبه قليلا ، ولكنه تماسك وقال :

— اعلمى أولا أنى ذو قلب •• حذار أن تقارنى بينى وبين شهريارك ، انه كان يسفك دماء العذارى ولم يكن يعرف الحب • أما أنا فقد أذنت بحمام الدم لأنى أحب ••

فقالت شهرزاد فى سخرية :

— امرأة ؟ ••

فأجاب هتلر فى لهجة مثل لهجتها :

ـ انى لست همجيا حتى أقوم بمثل هذا العمل ..

ـ أنت حقا رقيق الشعور ..

ـ لقد قلت لك أنى ذو قلب ، وأى قلب .. انه أكبر من أن يحوى امرأة .. انه يحوى ألمانيا ..

وصمت .. فابتسمت شهرزاد وقالت فى هدوء :

ـ كنت أحسبه أرحب من ذلك . وأنه يحوى شيئا أكبر من ألمانيا ..

ـ ماذا ؟ ..

ـ الانسانية ..

لفظتها شهرزاد فى همسة عميقة ، فوجم هتلر لحظة ثم قال :

ـ ماذا تعنين ؟ ..

ـ أعنى أنك لو أحببت الجنس البشرى كله ، لا الجنس الآرى وحده .. لكنت أعظم ألف مرة مما أنت الآن ، ومما تريد أن تكون . اصغ الى مليا . لماذا لم تفكر فى هذا المجد ؟ يدهشنى حقا أن مثلك لم تخطر له هذه الفكرة ! ان حياتك معجزة لاريب فيها ، فلماذا لم تستخدم هذه المعجزة لغاية أعظم وغرض أسمى ؟! لماذا لم توجه قوتك وثورتك للارتفاع بالانسانية كلها .. فيسطر التاريخ لك صفحة لا يسطر مثلها لغير الرسل والانبياء ؟.

ان الصفحة التى يعدها التاريخ لاعمالك اليوم ليست بذى شأن عظيم ، وقد كتب مثلها لكثيرين من قادة الجيوش الذين فتحوا العالم معتمدين على القوة العسكرية .. ففرحوا بأكاليل النصر الحربى الذى زان جباههم ، ولم يفطنوا الى أنها أكاليل من الزهر الذى يذبل بعد حين . ولقد ذبلت فعلا ، وهوت وذرتها الرياح .. كل تلك الفتوح التى تفاخر بهـا أولئك القـواد العسكريون ، ذلك أن لا شىء يثبت فى الارض وينبت الثمار الصالحة غير البذرة الطيبة التى يلقيها فى نفوس البشر رجل يحب الانسانية كافة . هذا هو المجد الذى ليس بعده مجـد لانسان ! ..

ـ انك امرأة .. ولا يدهشنى قط من امرأة أن تبخس قدر النصر الحربى ! ..

ـ النصر الحقيقى هو ذلك الذى يستطيع أن يسير بالبشرية

ولو خطوة ، ويسعدها ولو لحظة .. ان كلمة نبى ، أو ترنيمة شاعر ، أو تغريدة موسيقى ، لأبقى على الدهر من صيحات الظفر وطبول النصر فى أكبر معركة حربية ! ..

ـ عجبا ! ..

ـ فيم العجب ؟ ان ذلك الذى يستند الى قوة الله ، وهو النبى والرسول . وذلك الذى يستند الى قوة الفكر وهو العالم والفنان ، لأبقى وأخلد من ذلك الذى يستند الى قوةالجيش !!

شرد هتلر بخياله لحظة ، وقال كالمخاطب نفسه :

ـ واأسفاه ! .. لطالما تقت لأن أكون نبيا ! ..

ـ من أجل ذلك هاجمت الله والكنيسة ؟! ..

ـ ولطالما تقت الى العلم والفن ! ..

ـ ولهذا نفيت العلماء والفنانين ؟! ..

ـ عبقرية بلادى هى عبقرية عسكرية قبل كل شىء .. لم أفطن الى ذلك يوم قامت فى نفسى تلك القوى الجائحة تدفعنى أن أفعل شيئا للتاريخ .. لا تنكرى يا شهرزاد أن المعجزة تتخذ لون الارض التى تظهر عليها ، وان العظيم يتغذى ككل نبات بعناصر التربة التى ينبت فيها ! .. لا تحسبى عبقرية ألمانيا أو أوروبا تصلح لابراز نبى من أنبياء الشرق ! ..

ـ هذا صحيح ، ولكن العظيم يجب أن يثور على أوضاع بيئته وأمته وعصره ، لينشر تعاليمه التى تنفع الانسانية كافة ، هكذا فعل المسيح ومحمد ، لقد كان كل منهما يجاهد وحده ضد وطنه وزمانه ، ليبذر فيهما المثل الأعلى الانسانى .. وقد اضطهدا وعذبا فى سبيل ذلك ، وقد انتصرا آخر الامر ذلك الانتصار الخالد على الزمانوما بعد الزمان . ثق انى لا أخدعك . ان الخلود هو لمن يعمل لخير الانسانية كلها ، ولرفعة الجنس البشرى كله .. لهذا كانت غلطتك الكبرى أنك أحببت جنسا واحدا ، وكرهت بقية الاجناس ! وعملت لرفعة شعب واحد ليستعيد بقية الشعوب ! .

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام « المباح » ـ المباح مؤقتا باذن خاص من هتلر ـ وسكت « الفوهرر » ولا يدرى أحدا كان سكوته لاقتناعه بحديث شهرزاد ، أم للتفكير فى طريقة للتخلص من هذه المرأة الخطرة ؟؟ ..

حماري ومؤتمر الصلح

قال لى حمارى مرة : « صف لى مؤتمر الصلح لهذه الحرب ؟ »
فقلت له ، وقد راقنى سؤاله ، ووددت لو استطعت الجواب : كيف أصفه ؟ انه لم ينعقد بعد بالطبع هذا المؤتمر ، ولا يدرى آدمى متى ينعقد •• اذا شئت ، فلنلجأ الى عين الخيال ، نرى بها ما يجرى فيه وما يفضى اليه • وعين الخيال هذه كعين الماء فى الصحراء تستمد مادتها من أغوار الرمال •• رمال الزمن والماضى •• لذلك أتصور أن يعقد مؤتمر الصلح القادم فى « فرساى » مرة أخرى ، وفى قاعة « المرايا » الشهيرة بالذات • ولكن المبادىء التى ستطرح كأساس للسلام سوف تكون جديدة الوجه • والرجال المجتمعون حول مائدة المفاوضة سوف ينتخبون طبقا لفكرة خاصة ، وفى الحق أنه عقب انتهاء الحرب سيشتد الرأى العام فى كافة الشعوب المحاربة حول هذا السؤال : من الذى يصنع السلام ؟ أهم أولئك الرجال أنفسهم الذين جاؤوا بالنصر ؟ ألا يخشى أن يكون العمل المنهك والجهد المضنى الذى قام به هؤلاء الابطال يجعلهم فى حاجة أن ينالوا قسطهم من الراحة ، فيتولى عبء الجهاد الجديد رجال جدد ممن كانوا أثناء الحرب يدرسون مشاكل الغد ، ويعدون العدة فى صمت لبناء

صرح السلام العالمى ؟ ثم ألا يخشى من الرجال المنتصرين اذا انتصروا تسلموا قيادة الصلح أن تنسيهم حرارة الظفر أنفسهم ، فيحسبون أن واجبهم على مائدة السلم أن يحرزوا لاوطانهم انتصارات أخرى ، وبهذا يضيع معنى الفكرة العظمى التى من أجلها بذلت الارواح وسفكت الدماء وهى : التعاون الدولى على أساس المساواة والاخاء بين الامم جمعاء ؟! كل هذه الاعتبارات قد تجعل من المحتمل أن توفد الديموقراطيات المنتصرة الى المؤتمر رجالا مشبعين بهذه الفكرة العليا • فمثلا قد توفد حكومة تشرشل رجل مثل « بيفردج » وحكومة روزفلت رجلا مثل « ديوى » وحكومة ستالين رجلا مثل « لتفينوف » وحكومة برلين رجلا مثل « أوتو شتراسر » الخ •• وهكذا تفعل كل حكومات الدول المجتمعة حول مائدة الصلح ، ولما كانت مصر مدعوة بطبيعة الحال الى تبوأ مركزها من هذه المائدة ، فقد حق لك يا حمارى أن تسأل عمن سوف تندبه حكومة القاهرة لهذه المهمة الخطيرة ••

اسمح لخيالى أن يخلع عنه الآن رداء الرزانة ويقفز قفزة جريئة ، فيتصور أن مندوب مصر هو : العبد الفقير « كاتب هذه السطور » ولا تسأل عن السبب ، بل تعال معى نشاهد ما الذى سيحدث : لا شك أن خبر تعيينى سيقابل كعادتنا فى مصر بالهجوم العنيف من الحساد • فيمنعون فى تجريدى لا من الصفات الآدمية التى يتمتع بها كل من خلقه الله من ماء وتراب •

فيرد على ذلك الانصار بما يعرفونه عنى من الصفات الحسنة مبالغين فيها •• ويأتى يوم السفر فتحتشد الجموع فى مطار الماظة حيث تقرر أن أذهب طائرا الى فرساى • ويعلو هتاف الجماهير مذكرا اياى بمطالب البلاد • فألوح اليهم بالمحفظة التى تحوى الوثائق الرسمية والمذكرات التفسيرية التى عليها تقوم المفاوضات ، ثم تتحرك بى الطائرة مرتفعة فى الجو وقد تبعتها بعض الطائرات الخاصة مزينة بالاعلام الخضراء تودعنى حتى شاطىء البحر ، ثم حطت الطائرات فى الدخيلة • وعبرت طائرتى وحدها الى أوروبا وأنا داخلها أفكر فى سر اختيارى للمؤتمر •• وماذا أنا قائل فيه •• وأنا لم أدرس بعد أية وثيقة من الوثائق التى بالمحفظة • فقد ضاع وقتى فى مصر بين مطالعة

شتائم الحساد فى النهار وأقوال الانصار فى المساء .

لكن لماذا لا أنتهز هذه الخلوة فى الطائرة وأطالع هذه الاوراق الهامة ؟ ومددت يدى نحوها ولكن ذهنى شرد .. وتلك ولا شك صفة فات حسادى أن يذكروها ضمن ما ذكروه عنى من صفات .. شرد ذهنى فى أمر وصولى الى فرنسا .. وأين يكون مقامى ؟ أفى فندق فرساى مع بقية أعضاء مؤتمر الصلح .. ولماذا لا أنزل كما يحلو لى فى مونمارتر مثلا .. بذلك الفندق الذى نزلته منذ نحو عشرين عاما ولى فيه ذكريات ؟ وجعلت أستعرض فى رأسى ذكرياتى يوم كنت أقطن أمـام مرقص « الكوليزيوم » المشهور . وأمضى ليلى أكتب شعرا فرنسيا منثورا فى الحانة المجاورة للملهى « الطاحونة الحمراء » وأنا أحتسى بيرة ستراسبورج وآكل « الكرنب بالسجق » .. وأرمق بنات الهوى الجائعات الجالسات على الموائد حولى ينتظرن الدعوات وأنا أقول لهن : « يا عرائس الشعر أبعدن عنى ساعة الأكل ، فما فى جيبى غير فرنكات معدودات ثمن طبقى وحق جمالكن ! »

فى اليوم التالى لوصول طائرتى الى فرنسا ، افتتحت أول جلسة من جلسات مؤتمر السلام فى قصر فرساى ، بحديقته الخضراء ذات النافورات العجيبة ينبثق منها الماء فى أشكال وألوان ، كأنه ماسة ملقاة فوق العشب تشع بالأضواء .. واجتمع الاعضاء من مختلف الدول حول مائدة كبرى مستديرة فى قاعة « المرايا » .. وقد وضع كل عضو محفظة وثائقه أمامه وجعل يخرج منها الاوراق .. واتخذت مكانى بالطبع بين الجالسين .. وأردت أن أصنع مثـل ما .. واذا لدهشتى ومصيبتى وطامتى أتذكر أنى نسيت محفظة وثائقى بالطائرة .. والنسيان قاتله الله صفة أخرى من صفاتى الممتازة .. ما العمل الآن وقد ضيعت أول ما ضيعت المحفظة التى فيهـا مطالب بلادى ! ..

لم تدم ورطتى طويلا ، فقد عزيت نفسى بقولى ان المؤتمر فى يومه الاول لن يبحث على أى حال فى المسألة المصرية .. ومن هنا الى أن يجىء دورها يكون الله تعالى قد فتح على بالحل الموفق السعيد ..

وغرقت فى مقعدى الوثير مطمئنا ، أستمع الى المناقشـات

التمهيدية الاولى بين « بيفردج » و « ديوى » و « لتفينوف » و « شانج كاى شيك » وكلما أوغلوا فى المناقشة فترت قوتى على الاصغاء وتهيأ ذهنى كالعادة الى الانصراف والانطلاق فى أجواء أخرى • وبالفعل لم يمض قليل حتى ألفيت نفسى منهمكا فى حصر عدد المرايا التى فى القاعة وملاحظة حركات ممثل الصين وهى تنعكس على كل مرآة •• ثم طفقت أقول فى نفسى : ليس أنسب من هذه القاعة لاجتماع نسوى •• فكثرة المرايا تسر المرأة وتملؤها زهوا وخيلاء • لكن لماذا تجتمع الدول هنا أيضا فى قاعة المرايا ؟ •• أخشى أن يكون هذا سببا من أسباب الزهو والخيلاء الذى كاد يذهب برؤوس بعض ممثلى معاهدة « فرساى » السابقة ! ••

مضيت فى هذه الخواطر دون أن ألتفت الى ما يجرى حولى ، واذا أنا أتنبه على صوت المجتمعين يقررون أن يبدأ المؤتمر بسماع رأى الامم الصغيرة واتجهت العيون نحوى • وأعطى الكلام لمندوب مصر •• يا للكارثة ! جاءك الموت يا تارك •• (المحفظة) ! وأصبحت فى موقف لا يحسدنى عليه حساد ولا عذال •• أين محفظتى أين ورقى ؟ ماذا أصنع أيها الناس وماذا أقول ؟ •• ولكنى وقفت على كل حال رغما عنى وقد مدنى اليأس والحرج باتقاد ذهن ليس من شيمتى فانطلق لسانى يقول :

— أيها السادة الأجلاء •• ليس هنا اليوم أمم صغيرة ولا أمم كبيرة انما نحن أمة واحدة وعالم واحد يجتمع حول هذه المائدة كما يجتمع أفراد الاسرة الواحدة على مائدة العشاء • عالم واحد وحريات أربع • أليس هذا هو الدستور الجديد لدنيانا الجديدة كما جئنا لنشيد بناءها ؟ •• ولا ريب أننا جميعا متفقون على تلك المبادىء التى أذاعتها الديموقراطيات قبيل انتهاء الحرب وجعلتها بمثابة الاركان الاربعة لعالمنا الجديد • انها كما تعلمون : حرية القول والرأى • حرية العبادة • والتحرر من العوز والفقر • والتحرر من الظلم والاستعباد • اذا تم تحقيق هذه الحريات لكل أمة من الأمم ، فقد استغنت بها عن كل مطلب خاص تتقدم به الى هذا المؤتمر الموقر • الا ما تعلق بالتفاصيل ووسائل التنفيذ فهذا بالضرورة يحتاج الى البحوث الخاصة التى تعرض

على هذه المائدة · على أنى حتى فى هذه المباحث والطلبات والتفصيلات التى تتعلق بكل دولة على انفراد ، أرى رأيا وأقترح اقتراحا أرجو أن يحوز موافقة المؤتمر ·· ذلك الاقتراح هو أن لا يتولى الدفاع عن مطالب أمة مندوب هذه الامة ، بل مندوب أمة أخرى ·· وذلك منعا من طغيان عاطفة القومية والوطنية على الشعور بالمصلحة الانسانية والعالمية · فمثلا يتولى الدفاع عن مصالح أمريكا مندوب الصين وعلى العكس ، وتقوم تركيا بالدفاع عن مطالب الروسيا · وفرنسا عن ألمانيا ·· ومصر عن انجلترا ·· وهكذا ··

وسكت لحظة أمام نظرات مستر « بيفردج » وهو يفحصنى بعينيه متعجبا ·· ولكنه عاد فأخذ الأمر على وجهه الحسن ، فارتسم التفاؤل على شفتيه فى صورة ابتسامة رضا ، شجعتنى وشجعت جميع الاعضاء فهتفوا معا موافقين على الاقتراح ·· ونهض « ديوى » فصافح « شانج كاى شيك » وقام « سراج أوغلو » فسلم على « ليتفينوف » · وانحنى « ستراسر » يحيى « ديجول » · ودعانى المؤتمر الى المضى فى الكلام فقلت :

ــ أرجو أن يكون مستر « بيفردج » مطمئنا الى وضع مصير بلاده بين يدى ، كما أطمئن أنا الى وضع مصير بلادى فى يده ، ويسمح لى أن أوجه التفاتة الى مشاكلنا الاجتماعية التى تحتاج الى علمه وخبرته وفطنته ، فرفع مستوى الفلاحين يتطلب مشروعا ضخما يماثل مشروع التأمين الاجتماعى بالنسبة الى انجلترا ، وتوطيد مركزنا الاقتصادى وزيادة الثروة الاهلية والمحافظة على مستواها سواء بادخال وسائل انتاج جديدة أو بتحسين الانتاج الزراعى والصناعى القائم ·· كل ذلك موكول الى بحثك المستفيض وهمتك العالية ، أما مسائلنا الخارجية فانها ستوضع ولا ريب على الأسس العامة التى تقوم عليها العلاقات الخارجية لكافة الدول ، فانه تحت ضوء هذا المبدأ : « عالم واحد وحريات أربع » سوف تحل كثير من المشاكل ، وأن فى صيحة الديموقراطيات المدوية بأن « فى الامكان القضاء على القوة كوسيلة للاعمال السياسية » اذا قوبلت ووجهت بقوة أخرى أعظم منها تقوم على دعائم اقتصادية وخلقية ، ويعززها بوليس مشترك يمنع أية دولة أو مجموعة من الدول أن تجد الفرصة

التى تمكنها من الاعتداء على أية دولة مجاورة لها فى أى مكان فى العالم » .. الخ . هذه الصيحة ستمحوا ولا شك كل الصعوبات التي وقفت في سبيل الصداقة بين الشعوب القوية والضعيفة . هذا فيما يختص ببلادى وقد وضعته بين يديك . أما فيما يختص ببلادك فأمره سهل ، ولا شك أنك قد وضعت فيه البحوث والدراسات وملأت مذكراتك ووثائقك مشروعات . وليس لى الا أن أمد يدى وأقول لك يا مستر « بيفردج » سلمنى محفظتك !! ..

حماري والطوفان

جلس حماري الى جوارى كما اعتاد وقال :

ــ أخشى أن تثور كبرياؤك ذات يوم فتترفع عن مجالسة مثلى ! ..

قالها بنبرة أعرفها في صوته ، انه مخلوق يجيد نوعا من السخرية ، ليس من الهين أن يلمح في كل الاحيان .. لانه مغلف في طيات التواضع والتسليم والاذعان ، ولكن أعرف فيه أيضا قوة المقاومة وصلابة المراس .. وشيئا من الاعتداد بالذات لا يظهر الا اذا وخز وخزة تجرح نفسه .. لذلك ألجأ معه الى المزاح في القول والاغلاظ في التهكم حتى أرغمه على مصارحتى بكل مشاعره .. فأجبته :

ــ وأنا أخشى ان يركبك الوهم فتحسب أن لا فرق بينى وبينك ! ..

ــ لا تخف .. ان الوهم لا يركبنى أبدا .. لم يركبنى غير الواهمين ! ..

ــ من أمثالنا معشر البشر ! .. أليس هذا ما تعنى ؟ ..

ــ ما أردت أن أمس كرامتك ، ان بيننا وبينكم صلات ود من

قديم ، لقد زاملناكم وركبنا معكم سفينة نوح فى عهدالطوفان .

فأدركت غرضه الخفى من الاشارة الى هذا المستند التاريخى .. وبادرت أقول :

— ليس هذا بدليل على الزمالة .. لقد ركبت معنا كل الحيوانات مما يؤكل ومما لا يؤكل .. من الأسد والفيل الى الفأر والخنزير .. وأقرأ تاريخ أبى الفدا تجد فيه أنه كانت للسفينة ثلاث طبقات : طبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الانس وطبقة فيها الطير ، ولقد فكرنا نحن الأنس فيك وخفنا على أمثالك من الدواب أن يفترسها الاسد . فدعا نوح ربه فسلط على السبع الحمى ، فكانت أول حمى نزلت فى الارض .. ثم شكوا الفأرة لافسادها الطعام والمتاع فأوحى الله الى الأسد فعطس فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها .. وكثر أرواث مثلك من الدواب . فأوحى الله الى نوح أن أغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث .. الى غير ذلك مما حدث فى السفينة وتدبرناه نحن معشر الأنس بفكرنا الناضج حيث لم نجد منكم معشر الحيوان والدواب غير المشاكل التى تقتضى الحل وتستوجب التدبير .. ولم نر منكم معونة ولا زمالة تهون علينا محرجات ذلك الموقف الخطير ..

— لا تتكلم عن فصيلتى .. لقد كان لنا رأى فى السفينة والطوفان .. وما دمت تذكر التاريخ والمؤرخين ، فارجع اليهم ينبئوك أن آخر ما دخل السفينة من الحيوانات كان الحمار ! ..

— وما هو ، من فضلك ، رأيكم فى السفينة والطوفان ؟ .

— لا تسألنى رأيى .. بل أجبنى أنت بفكرك الناضج ، لماذا كان الطوفان ؟ وكانت السفينة ؟ ..

— لماذا ؟ .. للظلم والفساد اللذين كانا قد عما الارض . وللضلالة والطغيان وعبادة الاصنام والأوثان ..

— من أجل ذلك أغرق الله الارض بما فيها من شرور وآثام ، وبمن عليها من طغاة وأصنام ، الا تلك النخبة الصالحة المنتقاة التى وضعت فى السفينة ، لتبدأ بعد ذلك حياة أخرى يسودها الخير ، وأجيالا جديدة يقودها الخير ..

— هو ذاك ؟ ..

ـ وهل ساد بعد ذلك الخير ، وانتصر الحق ؟! ..
ـ ماذا تعنى ؟ ..
ـ ألم يقل لك مؤرخوك أن قوم عاد « كانوا أول من عبد الأوثان بعد الطوفان ؟ » .. كل شيء رجع فنبت من جديد .. بعد أن غيض الماء ، وبلعت الارض ماءها ، ورجعت الحمامة الى نوح وفى منقارها ورقة الزيتون وفى رجلها الطين .. وأخضر وجه الارض ونبت فيها الزرع والضرع والخير والشر ، أقوى مما كان وأخصب ..
ـ نعم .. نبت الشر من جديد .. أتدرى لماذا ؟ لأن ابليس كان قد دخل السفينة مع من دخل ولم يغرقه الطوفان مع من أغرق . أتدرى كيف تسلل ابليس الى السفينة ؟ ..
ـ لا .. كيف تسلل ؟ ..
ـ يروى عن المؤرخ ابن عباس أن ابليس دخل متعلقا بذنب الحمار ! ..
ـ أو كان ابن عباس هذا شاهد عيان ؟! ..
ـ لست أدرى .. انما أحدثك بما جاء فى بطون الكتب .
ـ خير لك أن تحدثنى برأيك أنت فى نتيجة كل ذلك ؟ .
ـ نتيجته أن نوحا خرج بعد ذلك الى الارض هو ومن معه من انس ودواب .. وابتنى مذبحا لله ، وأخذ من الطير والدواب الحلال فذبحها قربانا الى الله سائلا اياه أن لا يعيد الطوفان على أهل الارض . فعهد الله اليه أن لا يعيده ، وجعل تذكارا لميثاقه اليه القوس الذى فى الغمام ، وهو قوس قزح الذى قال ابن عباس أنه أمان من الغرق ، وقال آخرون أنه قوس بلا وتر ، أى ان هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة .
ـ الواقع أن الطوفان لم يحدث غير مرة ، بعد أن ثبتت قلة جدواه فى المرة الاولى ! ..
ـ أنت تقصد ولا شك طوفان الماء .. هذا حقيقة لم يحدث غير مرة . وقد وعد الله بأن لا يعيده .. ولكنه استعاض عنه بطوفان من نوع آخر يحدث فى كل جيل مرة أو أكثر .. ذلك طوفان الدماء ! ..
ـ حتى طوفان الدماء ماذا صنع ؟ وماذا أجدى ؟ ألم تكن الحرب الكبرى الماضية طوفان دماء ؟ ..

ـ طبعا ..

ـ لقد انتهت النازلة وختمت المجزرة ، وشربت الارض دمائها وابتلعت آثامها .. وظن العالم أن أصنام القوة المادية قد حطمت . وأوثان الطغيان قد هدمت . وان الحق وحده هو المسيطر . وان الخير هو المنتصر .. وان الدول الصغيرة والدول الكبيرة سواء أمام سلطان الحق وحده .. وان الشعوب القوية والشعوب الضعيفة متساوية أمام سيد واحد هو : النفع العام لبني الانسان دون اثرة أو نعره .. ونهض الناس ينظرون فى كل أمة الى قوس النصر وقبر الجندى المجهول . كما نظروا الى قوس قزح .. سائلين الله أن لا يعيد الحرب مرة أخرى .. فما الذى حدث ؟ أجبنى ما الذى حدث بعد ذلك ؟ ..

ـ حدث الذى حدث فى الطوفان الاول بلا زيادة ولانقصان . حدث أن تعلق ابليس بذيل ..

ـ بذيل من ؟ ..

ـ بذيل الرئيس ولسن ! .. صاحب المبادىء الاربعة عشر المشهورة التى كانت ستكفل للعالم سيادة الحق والعدل والخير والسلام ..

ـ اذا لقد خاب ذلك الطوفان هو الآخر ؟ ..

ـ بالطبع .. وها نحن أولاء فى طوفان جديد .. لم تبتلع الارض بعد ماءه ، بل لو ذهبت الحمامة لما وجدت ورقة زيتون تلتقطها ولا عشا تأوى اليه .. لقد ضربت القنابل كل بناء وهدمت كل جدار .. ولكن الناس يحتملون كل ذلك صابرين ، وينظرون الى الغد مستبشرين . ويعللون أنفسهم بأن هذا آخر طوفان ..

ـ كما قالوا فى كل مرة

ـ أظن أنه قد آن للبشرية أن تعقل وأن تبلغ رشدها . وأن تتحرر نهائيا من طغيان الغرائز الدنيا .. وأن تكف عن تمزيق بعضها بعضا ، وأن ترتفع الى حيث تعمل متكاتفة لمصلحة الانسانية كلها جمعاء ، دون ضغائن ولا سخائم ولا بغضاء .. ودون تمسك بغرور كاذب وعظمة زائفة وحب تسلط وشهوة سيطرة ..

ـ قل بالاختصار دون عبادة لاصنام الكبرياء الذاتى .

ـ هو ذاك ..

ـ اسمح لى أن أقول ان هذا شيء عسير على الانسان . لا بد للانسان من عبادة الاصنام .. لم يستطع طوفان الماء ولا طوفان الدماء أن يغرق الاصنام التى يصنعها الانسان لنفسه ! .. ان الانسان غير قدير ولا جدير بعبادة الله .. لأن الله لا يميز بين جنس وجنس ، ولا فصيلة وفصيلة .. هو النور العام الذى يضيء كل الكائنات .. وهو الحب العام الذى يربط كل شيء بكل شيء .. ولكن الانسان لا يفهم ذلك .. انه لا يرى الا ذاته المحدودة ، ولا يعبد الا ما تصنع له يده من صور نفسه الجشعة الأثرة المتعجرفة العمياء .. كلا .. ان الله بعيد عن الانسان .. وأنه أرفع وأعلى وأعمق من أن يتصل به الانسان .. ربما كنت أنا وفصيلتى أقدر على حبه . وهل سمعت منذ بدء التاريخ أن فصيلة الحمير عبدت أصناما ؟! .

ـ انى معك .. مع الأسف ..

ـ أجبنى اذن : ما فائدة الطوفان اذا كان ..

ـ اذا كان لا يستطيع أن يغرق ابليس ؟! ..

ـ أرجو قبل كل شيء أن لا تصدق أن ابليس دخل السفينة متعلقا بذيل الحمار ..

ـ بل هذا أصدقه ..

ـ تصدق هذا ؟ ..

ـ بالتأكيد .. لأن الحمار يحمل نفسا صافية ، ومبادىء مثالية .. وابليس خبيث يحب العبث والسخرية ، ولا يحلو له أن يعبث ويسخر الا من أصحاب النفوس الخيرة والمثل العليا ! . فلا عجب اذا دخل مكانا أن يتعلق بتلابيب أطيب القوم قلبا . وأسماهم فكرا .. لأنه لا يلازم التافهين ، ولكنه يتمسح بذوى الشأن .. انه يحب الدخول من الباب الكبير .. لذلك ترانى أنظر الى هذا الطوفان الاخير بعين القلق .. أبحث عن الرجل المثالى الذى سيدخل فى أذياله ابليس ! ..

ـ أكتب عليكم هذا معشر البشر أن تعيشوا فى سفينة ضالة فى بحر الظلمات .. بغير المثل الاعلى تحيون كالديدان فى الحمأة يأكل بعضكم بعضا .. فاذا وجد فيكم من يحمل مشعل المثل العليا انقلب سخرية الساخرين ولعبة فى أيدى العابثين !.

ـ تلك هي المشكلة ..
ـ حتى الطوفان لم يحلها ..
ـ لم يجعل الطوفان ليحل شيئا .. ولكن ليلطف من وقع الاشياء . انه حمام يهدىء اعصاب البشرية كلما احتاج الامر .. لقد فقدت الأمل في وجود العلاج الحاسم .. فلم يعد حتى طوفان الدماء في نظرى غير نوع من الحجامة أو الفصد يلجأ اليه الانسان كلما ازداد الضغط ..
ـ أتدرى أين العلاج ؟ ..
ـ أين ؟ ..
ـ عندى ..
ـ عندك ؟ ..
ـ نعم .. عندى العلاج .. واذا قلت لك عندى فانما أقصد عند فصيلتى .. فنحن نفكر جميعا تفكيرا واحدا . فليس عندنا حمار مثالى وآخر مادى .. وليس عندنا زعماء ولا قادة ولا أوثان ولا أوطان .. بل يوجد حمير على أرض الله وكفى .. شعورها واحد وقلوبها واحدة ..
ـ هذا جميل ..
ـ نعم . ولذلك أستطيع ، اذا سمحت لى ، أن أجد العلاج لكم معشر الانسان ! ..
ـ حقا .. هذا هو الذى كان ينقصنا ! يا لمجد الانسانية المنهار ! .. أيذلنا القدر هذا الاذلال ، فلا نجد من يهدينا الى علاج أمرنا غير حمار ؟! .
ـ كبرياؤكم .. كبرياؤكم .. كبرياؤكم الزائل .. انه فى دمكم ! دمكم الذى فسد .. لا أمل فيكم ولا علاج لكم الا بعملية نقل الدم .. نقل دم جديد ..
ـ أظنك ستقترح أن ينقل الينا دم حمير ؟! ..
ـ لا .. انها لضحية كبرى من فصيلة الحمير ، لا أنصح لها أن تتحملها من أجلكم ! ..

٥

شعب يريد النصر

من يطالع كتاب « الحرب والسلام » لتولستوى يجد هذه السطور :

« ان المعركة لا يكسبها دائما الا ذلك الذى وطن النفس على كسبها .. لماذا خسرنا موقعة أوسترلتز « أمام نابليون » ؟ لقد كان ما تكبدناه من خسائر معادلا لما تكبده الفرنسيون ! .. ولكن الذى حدث هو أننا كنا أسرع منهم اعتقادا فى الهزيمة ! .. ان الانتصار لا يتوقف على القائد ولا على رئيس هيئة أركان الحرب .. ولكنه يتقرر عندما يصيح أول جندى « لقد خسرنا ! » أو عندما يهتف : « لقد ظفرنا ! » .

ويمضى تولستوى بعد ذلك فى تعليل ما حدث عام ١٨١٢ من ارتداد نابليون بجحافله عن مدينة موسكو .. لا عبقرية نابليون فى رأيه ، ولا ما كان يصاب به من زكام ، ولا جليد روسيا الذى كان يجمد أنوف جنده ، فتتساقط من الوجوه كأنها حطام . ما كان هذا كله هو السبب فى تقهقر الفرنسيين .. انما السبب الحقيقى فى نظره هو أن روسيا كانت تتشبث بحياتها فى أرضها أكثر من تشبث فرنسا باحتلال أرض ليست

لها •• لقد أراد الروس طرد هؤلاء المتطفلين على بلادهم •• وكانت ارادتهم هي الأقوى •• لأنها الأصدق •• ولا شيء في الوجود يهزم ارادة صادقة ! ••

النصر هو اذن لمن يريد النصر •• ولا يريده حقا من صميم نفسه الا ذلك المعتدى عليه فى عقر داره ••

ان الدول تنبت وتشب فى أرضها على مدى الأحقاب ، كما ينبت ويشب الدوح ، وتثبت جذوعه ، وتتغلغل جذوره •• فلا تخلعه العواصف ، ولا تقلعه الرياح •• انها لا تزرع لساعتها بالأيدى فى أى أرض ، كما يزرع ضعيف الحشيش وواهن العشب •• فبالايدى يخلع كذلك وفي الفضاء يطرح ! ••

هكذا يظن قصار النظر من ساسة الغرب ان فى مقدورهم أن يغرسوا بأيديهم فى طرفة عين دولة فى أرض الغير ••

ان التاريخ غنى بالعبر •• ولكنهم لا يبصرون ••

ولكن الموعد قريب •• يوم تردهم طبيعة الاشياء الى البصر ، فيرون عندئذ كيف يتطاير زرعهم هباء ، وكيف تذروه الرياح بددا ••

اننا سننتصر لأننا أردنا النصر •• كل فرد فينا أراد النصر •• لا جندى القتال وحده •• بل كل انسان نبت فى هذه الارض •• وتغلغلت فيها جذوره منذ القدم •• كل انسان عالم أو جاهل •• كل فرد صانع أو عامل •• ان الجميع يتحرقون شوقا الى العمل من أجل النصر ، ويضطرمون غضبا على كل من يصدهم عن هذا السبيل ••

لقد تلقيت ذات يوم صيحة مجلجلة كقصف المدافع من رجال بعيدين عن الحرب كرجال التعليم الصناعى يقولون ثائرين : « لقد التمسنا من أولى الأمر أن يستغلوا خبرتنا الفنية والعلمية من أجل الانتاج الحربى ومن أجل جيشنا المظفر •• لدينا مصانع كثيرة يمكنها أن تعمل لا بحرارة الوقود بل بحرارة دمائنا التى تغلى فى العروق ! •• لا نريد أن تظل خبرتنا معطلة وقوتنا مهملة فى هذا الوقت الذى ينال فيه الجندى شرف اهدار دمه فى ساحة البطولة والتضحية •• لا نريد أوسمة من الشكر والتقدير كتلك التى منحتنا اياها أولى الامر يوم عرضنا تطوعنا •• انما نريد أوسمة من التجنيد والتكليف

بالعمل لخدمة الجيش ليل نهار . انه ليحز فى نفوسنا ان الجيش البريطاني قد استغلنا فى الحربين العالميتين ، واعتصر جهودنا فى خدمة ما أسموه قضية الديمقراطية .. نريد نصيبنا من الكفاح قبل أن نعطى أجازات الصيف حيث الدعة والراحة . فى وقت نعتبر فيه الراحة جريمة فى حق الوطن الناهض والجيش المجاهد ..

بهذه اللهجة يتكلم الناس اليوم فى هذا البلد ..

ولكن كان هتاف أول جندى بالظفر هو الذى يقرر فى نظر تولستوى مصير الموقعة .. فما بالك بهتاف كل فرد فى الامة طالبا نصيبا فى الجهاد من أجل نصر البلاد !! ..

في يقيني أنا أمة كتب لها الانتصار .. لانها تريد خالصة صادقة أن تنتصر ..

٥ يونيو ١٩٤٨ ..

●●●

٦

تحرك الشرق الجامد..

.. أخيرا قد تحرك الشرق الجـــامد ! .. تحرك من صـــميم أغواره .. وأنه اليوم ليتأهب لوثبة عجيبة .. وان قوى في صدره تتأجج ، وان أفكارا في عقله تتخمر .. كل هذا يحدث على نحو مفاجيء ، وعلى صورة عميقة ما سبق للعالم أن عهدها فيه .. هذا الشرق الذى لبث في نوم عقلي وروحي ، ما يقرب من ألف عام ، ينفض الآن عنه الكرى ، وينهض على قدميه ليسير من جديد .. يسير الى أين ؟ .. لسنا ندرى بعد الى أين يسير .. وانه لمن الجرأة أن نتنبأ بما سوف يتمخض عنه هذا التأجج العظيم في السياسة والاقتصاد والاجتماع والدين . وغيرها من دعائم الحضارة الانسانية .. ولكنا نأمل أن يصاحب هذه الجهود والآلام مولد شرق ، بعث ليحتل مكانه في عالم جديد » ..

قائل هذا الكلام كاتب أمريكى اسمه « لوتروب ستودارد » .. نشره فى كتاب عنوانه « عالم الاسلام الجديد » . ظهر في عام ١٩٢١ .

وأهمية هذا القول أنه يصور رأى أمريكا فى شرقنا عقب الحرب العالمية الاولى .. ويرينا كيف أنهم استطاعوا أن يفطنوا

الى ما يضطرب يومئذفى نفوسنا من عناصر الحياة والنشاط والنهوض .. وما من شك فى أن أمل الكاتب قد تحقق أكثره .. فقد استطاع الشرق فى ربع قرن أن يحتل مكانا لا بأس به فى هذا العالم الجديد . الممثل فى هيئة الامم « المتحدة » ! .. على أن الذى كنت أود معرفته هو رأى ذلك الكاتب فى هذا » العالم الجديد « .. وعلى رأسه بلاده وزعيمها » ترومان «؟..

ترومان

أتراه قد حقق أمله أو خيبه ؟ .. لست أدرى أهو حى ذلك الكاتب الآن أم هو فى عالم الاموات ، ليجيب عن هذا السؤال !

ولكن فى كتابه مع ذلك نظرات ، نستطيع أن نستشف منها رأيه فى السياسة الامريكية الحاضرة .. لقد ألف كتابه فى وقت كان فيه الوطنيون فى الشرق يهبون مناضلين عن حرية أوطانهم .. وكانت فيه الثورة الروسية الفتية تهب مطلقة دعايتها فى أرجاء المعمورة .. فلنصغ الى ذلك الكاتب اذ يقول :

« .. يا له من موقف مؤلم حقا .. موقف أولئك الوطنيين الشرقيين .. انهم بين المطرقة والسندان .. بين سندان البلشفية ومطرقة الاستعمار الغربى ! .. كلما تلقوا من الحلفاء ضربة اتجهوا صوب « موسكو » . وكلما صدمهم « لينين » صدمة التفتوا نحو الغرب ! .. لو كان لدى ساسة الغرب ذرة من الادراك لفطنوا الى هذه الحقيقة ، وهى أن خير عامل من عملاء الدعاية البلشفية ليس « زينوفييف » ..

ولكن قادة الحلفاء بقواتهم الباطنية ووسائلهم العتيقة فى سوريا وقلب بلاد العرب ! » ..

تلك نصيحة عمرها ربع قرن ! .. ولكنها لم تهرم بعد .. بل انها لم تزل صالحة لأن تلقى اليوم فى بعض الاسماع الثقيلة والآذان الصماء ! ..

ولنستمع الى ذلك الكاتب أيضا وهو يبدى مخاوفه من أن تمتد يد البلشفية الى الشرق :

« ... ان الشرق قريب الشبه جدا من روسيا .. وان مؤتمر « باكو » كان هو القنبلة الاولى التى افتتحت بها المعركة ، التى قصد بها توجيه الغزو البلشفي المباشر الى الشرق ! .. »

ولكن مؤتمر « باكو » لم يستطع فى ربع قرن أن يبلشف أكثر من القوقاز وجورجيا وأرمينيا ..

الى أن جاء « ترومان » فى آخر الزمان ..

وهنا تستطيع روسيا أن توقن بأن مؤتمر « باكو » قد نجح بفضل أمريكا نجاحا لم يخطر على بال ..

لقد أهدى اليها ترومان دولة بلشفية فى قلب الشرق العربى .. انها الواحة المورقة التى سوف تغرس فيها من مبادئها جنات .. يحلم بما فيها كل من جاورها من الشعوب ! ..

ما أيسر المهمة أمام روسيا بعد ذلك ! .. وما أعجزها ان لم تنتهز الفرصة فتطرد الغرب بعدئذ من الشرق بركلة قدم ! .

هذا ما رآه وخشيه الكاتب الامريكى « لوثروب ستودارد » منذ ربع قرن ! ..

وهذا ما لم يره الرئيس الامريكى « ترومان » منذ يومين ! .

والله يعطى البصر من يشاء .. ويعمى بالغرض من يشاء ..

وما ينبغى لنا نحن أن نعلق آمالنا على أغراض الدول ، بل نعمل طبقا لأغراضنا .. فلنأخذ خيرنا حيث نجده ، ولنسع الى حاجتنا حيث تكون ! ..

ان الله تعالى أراد لهذا الشرق الجامد أن يتحرك .. كما قال الكاتب الامريكى الحصيف .. ولقد شاهد فى صدره قوى تتأجج .. ورآه ينهض على قدميه ليسير .. ولقد تساءل : الى أين يسير ؟ .. وها هو ذا الجواب بعد ستة وعشرين عاما : انه يسير الى مجده .. محطما فى طريقه كل من يقول له : قف مكانك أو عد الى جمودك ! ..

٢٩ مايو ١٩٤٨ ..

●●●

٧

عيشوا فى خطر ..

« .. انى أحيى تلك البوادر التى تنبىء بقدوم عهد موسوم بالرجولة .. نقشت فيه من جديد على جدران القلوب كلمة « البطولة » ..

صدقونى ! .. اذا أردتم أن تحصدوا ما فى وجودنا الخصيب من ثمرات ، وأن تفوزا من الحياة بأشرف المتع .. فانى أكشف لكم النقاب عن السر : عيشوا فى خطر ! .. ابنوا مدنكم على حافة البراكين .. ارسلوا سفنكم الى البحار المجهولة .. اشتركوا فى الحروب مع أندادكم .. ومع أنفسكم كونوا ناهبين وفاتحين .. ان لم تستطيعوا أن تكونوا مسيطرين ومالكين ! . عندئذ تشعرون أنه قد ولى عنكم الزمن الذى كنتم فيه تقنعون بالحياة فى الغاب مختبئين ، كالظباء النافرة الخائفة ! » ..

تلك كلمات « نيتشه » .. لكأنى به يوجهها الى شعبنا الكريم ، ووالله لو كان ذلك الفيلسوف حيا ، ورأى من مصر ما نرى اليوم ، لتنبأ لها هى أيضا بذلك العهد الموسوم بالرجولة والبطولة ..

ان تلك الصيحة : « عيشوا فى خطر » هى منذ اليوم صيحتنا ، فلتكن هناك هدنة أو لا تكون .. ولتقم للأعداء قائمة أو لا تقوم .. فان شعورنا بظل من خطر يدنو من أرضنا ، وادراكنا للتبعة الملقاة على أكتافنا ، وايماننا بأننا لن نحيا الا بكفاحنا .. كل ذلك كفيل أن يجعل منا ذئابا تنام فى الغاب بعين واحدة .. وتمضى النهار تسن المخلب وتحد الناب ! ..

سنعيش فى خطر .. ولن نخشاه .. لأن به عرفنا أنفسنا ، واستوثقنا من صلابة عودنا .. وأدركنا عندما سمعنا صوت العدو فى غابنا . انا لسنا بالغزلان الشاردة ،

ولا الظباء النافرة .. ولكنا أسود كاسرة ، وسباع ظافرة ..
وليس هذا علينا بجديد .. فما من مرة نحس فيها أن العدو عدونا ، وأن الحرب حربنا ، الا قمنا فيها هذه القومة .. لقد كان لنا دائما من شعورنا هاد ، ومن نظرتنا مرشد .. لقد اشتعلت من حولنا نيران الحرب العالمية الاخيرة ، فما استطاعت حرارتها أن تنفذ الى قلوبنا .. فقد شممنا منها بأنوفنا الدقيقة دخان الختل والخديعة .. صاح المتحاربون بأفكهم يقولون : انها حرب من أجل الحريات .. انها حرب من أجل الحق .. انها حرب من أجل نصرة الضعفاء .. وتحرير الأمم الصغيرة . ونشروا ميثاق الاطلنطى ، وقطعوا العهود بقيام عالم حر جديد . كل هذا ما هز نفوسنا .. لأننا كنا ندرك باحساسنا الداخلى أن كل ذلك هراء .. فنحن كنا نعلم فيم قامت تلك الحرب ، وكان موقفنا فيها موقف جماعة من الأبرياء الأطهار ، ألقت بهم الظروف فى حلبة قمار .. وقد طفق دهاة المتقامرين يغرونهم بأن يشتركوا فى اللعب ويساهموا محاولين أن يسلبوا ما فى جيوبهم من نقود ، وأن يستنزفوا ما فى عروقهم من دماء . وكل يؤكد أنه هو الرابح ، وأن بربحه يعم الخير والرخاء من ساهم ودفع .. ولقد ساهمنا نحن فعلا ودفعنا .. مدفوعين بعهود الصداقة للحليف ، ولكنا ما شعرنا لحظة أن هذه المساعدة لها فى نفوسنا من المعانى أكثر من كونها نوعا من البر والصدقه ، أو عربونا للعهد والصداقة .. ان هذه المؤازرة فى حلبة « القمار » ما كانت تشعرنا ببطولة ، ولا كانت جديرة أن توقظ فينا الاحساس بالفخار ..
أما اليوم فنحن أمام عدو لنا وحدنا .. لا نساق اليه سوقا ، ولا نساوم على مخاصمته بالوعود .. نرى أقوى دول العالم تؤيده ، ونرى أنفسنا منفردين بعداوته .. ومع ذلك .. فقد نهضنا لسحقه بقلوب تزأر فى جوانبها البطولة كأنها الرياح الهوج .. غير معتمدين على أحد ولا منتظرين مكافأة من أحد .
تلك هى مصر .. دائما .. صريحة صابرة صلبة صادقة .. لا يستنفرها للحرب ألف حليف قوى ، ولا ألف وعد سخى .. ولكنها تنهض بمفردها تناضل ، اذا تشبعت بالايمان غير حافلة بمواطن الخطر ..

١٤ يونيو ١٩٤٠

٨

نسر السلام

للشاعر الالمانى « جوته » قصيدة قصيرة يروى فيها قصة نسر صغير طار يوما باحثا عن الفريسة ، فأصابه سهم الصياد ، فوقع فريسة للألم فى غابة من المر والريحان .. ومرت به الايام وهو يئن صامتا حتى أدركته رحمة الطبيعة فخففت عنه . وانطلق النسر من الغابة يصفق بجناحيه .. لكن واأسفاه ! .. ان جناحه الأيمن مكسور ولن يستطيع بعد اليوم الا مس وجه الارض ناشدا الصيد الهزيل .. ووقف فوق صخرة ملقاة عند مجرى ماء ، وأرسل بصره الى السماء فانحدرت دمعة رطبت منه تلك العين الحادة البراقة كأنها سيف .. وهبطت قربه عندئذ حمامتان ، نظرتا اليه بعيونهما القرمزية كأنها فصوص مرجان . ولمحتا ما هو فيه من شقاء .. فقالت له احداهما : « لم هذا الحزن أيها الصديق ، وحولك كل ما ينبغى لافعام قلبك بالسعادة والاطمئنان ؟ ها هى ذى أغصان من ذهب تحميك من نار النهار ، وها هى ذى أزهار مغطاة بالندى تطلق بينها خطواتك الهادئة . وفى هذه الغابة تجد لك غذاء شهيا ، وطعاما سخيا .. وفى هذا الجدول الصافى تطفىء ظمأك ، وفى زبده تغمس صدرك ، أيها الصديق ، ان السعادة الحقة هى فى الاعتدال .. الاعتدال

فى المطالب .. الاعتدال فى الغايات .. فى كل مكان يستطيع الاعتدال أن يظفر بحاجته وأن يصل الى بغيته » ..

سمع النسر ذلك القول فتحامل على جسمه الجريح وقال : أيتها الحكمة انك تتكلمين كأنك حمامة ! » ..

أريد أن أغير فى قصيدة جوته لفظا واحدا : أريد أن أضع السلام » بدل « الحكمة » ..

فيقول النسر : « أيها السلام .. انك تتكلم كأنك حمامة ! »

عندئذ تصلح العبارة للنقش فوق جدران المؤتمرات ، وللطبع فى قراطيس المعاهدات ! ..

ولو كان للنسر أن ينطق فى عصرنا الحاضر لقال :

« أيتها الصديقة ! ان السلام لأعظم من أن تحتمله أجنحة الحمام ! .. » .

انه لم يعد غصن زيتون يوضع فى منقارك الصغير ، ولكنه « قنبلة ذرية » توضع فى مخالب النسور ! » .

ما من أحد خليق الآن برفع علم السلام غير نسر ..

لأن السلام لم يعد مجرد كلام .. ان السلام والحرب جهدان متكافئان .. السلام والحرب مثل وجهى الدينار ، من ملك أحدهما ملك الآخر .. ومن حمل النار حمل النور ..

ان من استطاع أن يثير الحرب ، استطاع أن يصون السلام .

ليس من حق الأعزل أن يتحدث عن السلام .

تتكلمين أيتها الصديقة عن « الاعتدال » فى المطالب والغايات ، هذا كلام جيد . ولكن من الذى يصد رغبتى ويحد من شهوتى ؟ أهو غصن الزيتون الذى فى فمك ؟ أم هو السيف الذى فى يد جارى ؟! ..

تحسبين كلامك من ذهب ! .. واأسفاه ! .. انك لاتعلمين ما هو الذهب فى هذه الايام ؟ الذهب اليوم ليس معدنا ذا بريق ، جميل المنظر ، خلابا للبصر .. ما من أحد يأبه الآن للرنين البديع ، أو يحفل بالمعنى الرائع ، انما الذهب اليوم سبائك توضع فى أقبية المصارف ، كما توضع القوات المسلحة فى ثكنات الدول .

يجب أن يكون فى الدولة رصيد من « ذهب » لتستطيع أن تصدر « سندات السلام ! .. » .

أصغت الحمامة الى هذا القول وطأطأت برأسها الصغير ، ثم قالت بنبرة الاذعان :

ـ صدقت ! ‥ لا تصلح الحمامة رسولا للسلام فى هـــذا الزمان !! ‥ حتى هذه المهمة النبيلة الجميلة لم تعد من حقى ؟ ٠ خذها اذن أيها النسر فريسة لك ضمن ما أخذت ٠ وأطبق عليها برفق وحنان واحذر أن تخنقها قبضتك ‥ وسيان عنـــدى سيان ‥ أن يؤدى هذه المهمة السامية فمى أو مخلبك ؟! ‥

٢٨ سبتمبر ١٩٤٦ ‥

●●●

٩

هل يتحد العالم؟

فى عام ١٩٢٧ قرأت كتابا نشره وقتئذ العلامة الايطالى « فيريرو » بعنوان « وحدة العالم » بسط فيه المشكلات التى خلفتها الحرب العالمية الاولى ..

ولقد عدت أخيرا الى قراءة هذا الكتاب .. فان من أنفع الامور فى نظرى أن يعيد الانسان قراءة الكتب السابقة بعد فترة من الزمان .. فماذا وجدت ؟ .. فى الحق انى وجدت صفحات خيل الى أنها كتبت عقب الحرب العالمية الاخيرة .. واستمعوا الى ما يقول ذلك المؤرخ : « تريدون وحدة العالم .. فلننتظر اذن طويلا .. ذلك ان أوروبا ليست سوى بركان يغلى بالأحقاد القومية .. تلك هى الحقيقة المرة ، كل شعب يعتقد أنه «هابيل» المهدد بالخطر من « قابيل » .. وأن جهود أصدقاء السلام ومؤتمرات السياسة ليست أكثر من هباء ضائع .. انى أعرف ما سيحدثه هذا القول من يأس فى نفوس الكثيرين ، ممن يؤمنون بضرورة وحدة العالم .. ولكن ها هى ذى الحرب العالمية قد زلزلت سلطان أوروبا السالف على أفريقا وآسيا .. وهددت سيطرة بريطانيا على البحار .. ولم يبق لنا الا أن نتساءل :

من الذى سيكون سيد العالم فى المستقبل ؟ .. بأى وسيلة من السلاح والمال وحيل السياسة سيقفز هذا السيد الى عرش سلطانه .. ذلك أن العالم لا بد له من سيد آمر .. من يكون ؟ أهى أمريكا بثرائها الضخم ؟ .. لقد كانت قبل الحرب مدينة الى أوروبا فأصبحت اليوم هى الدائنة للعالم والممولة للشعوب . أم ترى هى اليابان التى أغنتها الحرب .. ان الساسة والمفكرين ليتساءلون عما يحدث لو ان اليابان نجحت فى أن تضم اليها الصين ، وأن تجعل منها دولة حديثة كبرى تحت ادارتها .. ما من شك فى أن ذلك كفيل بأن يحدث هزة فى الكوكب الارضى .. أم أن الأمل معقود على روسيا المتدثرة بالغموض ، المغلقة بالاسرار ؟ .. ما من مكان تشب فيه حرب ، أو أن يشع نوره الا قيل أن أصابعها هى التى أشعلت عود الثقاب .. وأن أولئك الذين ينسبون اليها ذلك ، ليعتقدون كل الاعتقاد أن روسيا هى الاخرى تحلم بالسيطرة على العالم ، وأنها مستطيعة تحقيق ذلك الحلم على أثر انقلاب عالمى .. » الخ ..

هذا الكلام الذى نشره « فيربرو » منذ عشرين سنة ، يمكن أن ينطبق على أحداث هذه الايام .. باستثناء ما ذكر عن اليابان التى حطمها السلاح الذرى ، وهو ما لم يكن يخطر على بال انسان .. أما انجلترا فقد كان شبح انحلالها قد بدا لذلك المؤرخ منذ تلك الاعوام ..

العالم اذن قد صار كرة تتقاذفها يدان قويتان .. أمريكا وروسيا .. وهذه المباراة لا بد أن تنتهى عاجلا أو آجلا الى الخاتمة المحتومة .. سينقشع الغبار فى الغد عن الفائز بالكرة .. والسيد لهذا الكون ! ..

ولكن هل بذلك يسدل الستار وينتهى الخلاف ، وتتم على هذا النحو وحدة العالم تحت راية المذهب الغالب ! ..

ما أحسب ذلك ممكن الحدوث ، ان وحدة العالم على أى صورة من الصور خرافة .. انها وهم من الاوهام التى تقوم فى رؤوس المثاليين .. ان الدنيا لم تعرف فى تاريخها كله لحظة من اللحظات اتحدت فيها المذاهب ، واتفقت الآراء .. ان الرأى الغالب نفسه سوف ينقسم الى أجزاء لن تلبث أن تتخاصم وتتعارض .. والمذهب الواحد لا يطيق أن يحيى طويلا دون أن يولد من صلبه

مذاهب تتدافع وتتطاحن ٠٠ ان ناموس الحياة يأبى الا ذلك الاختلاف ٠٠ ولو استطاع جسم واحد أن يحيا بكرات حمراء دون كرات بيضاء تنافسها وتغالبها ، لأمكن العالم أيضا أن يعيش بالمذهب الواحد والرأى الواحد ! ٠٠ ولكنه الموت اذا وقع هذا الاتحاد التام بين كرات الدم أو مذاهب العقل ! ٠٠ لأن الحياة ليست سوى حرب سجال بين عناصر متباينة ، وتوازن بين قوى مختلفة ٠٠ لا وحدة للعالم اذن ٠٠ الا اذا خرجنا من طبائعنا وغرائزنا وخلعنا آدميتنا ، ولم نعد نخضع للقوانين التى خلقت بمقتضاها أجسامنا وعقولنا ونفوسنا ٠٠ ما دمنا بشرا فالحرب باقية ٠٠ لانها من مقومات حياتنا ٠٠ داخل الأبدان على صورة معارك بين الجراثيم ٠٠ وداخل العقول على صورة خلاف فى الآراء ٠٠ وداخل الشعوب على صورة صراع على التفوق ٠٠ فاذا سكنت هذه الحرب أو الحركة داخل الشعوب والافراد ، فمعنى ذلك انحلال القوى وانهيار الصحة واقتراب من الفناء ٠

يجب على المفكرين اذن أن يبحثوا عن صورة أخرى للسلام غير تلك الصورة التى ألفوها واعتادوا عرضها على الناس ٠٠ وهى « منع الحروب » ٠٠ ان الحرب فظيعة حقا ، ولكنها كتبت علينا ٠٠ ولن نستطيع منها خلاصا ٠٠ الا بأمر واحد : أن تهذب وسائلها ٠٠ وأن نتسامى بأساليبها ٠٠ وأن نجعلها جديرة ببشر لا بوحوش ٠٠ ولكن كيف السبيل الى ذلك أيضا وفى داخل كل منا وحش لم نستطع بعد آلاف الاجيال أن ننتزع منه المخلب والناب ؟! ٠٠

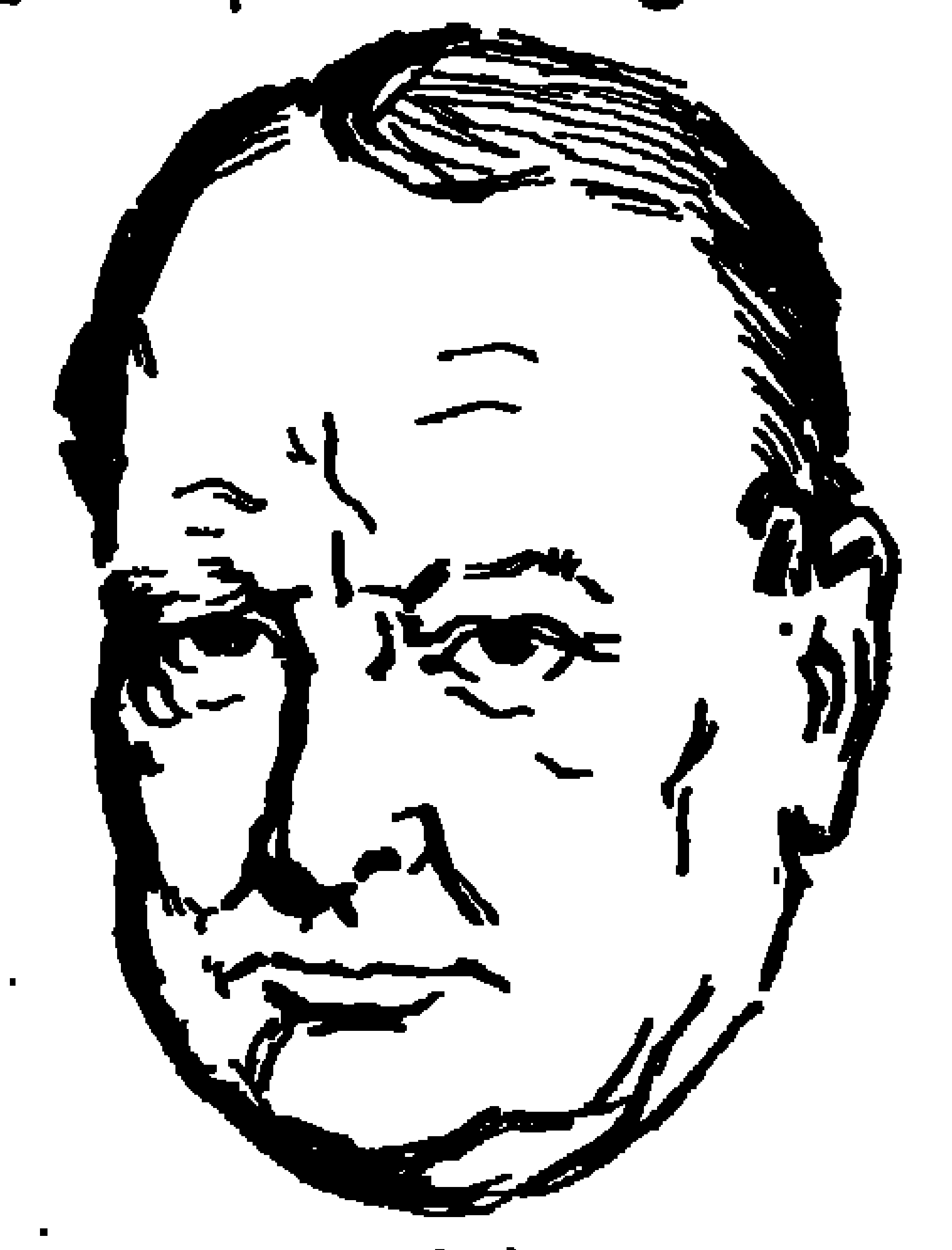
١٥ مايو ١٩٤٨ ٠٠

●●●

١٠

صفحة من مذكرات تشرشل

هوننج ستريت رقم ١٠ فى ٠٠٠


تشرشل

الريخ الثالث محى اليوم من الوجود هكذا حطمت ألمانيا وتمزق كيانها وتناثرت أشلاؤها ، ولم يعد لها حساب فى سجل أوربا الى ما لا ندرى من الازمان ، انه النصر ، ويا له من نصر ! ٠٠ هنالك مع ذلك سحابة تغيم فى نفسى ، وسؤال مريب يعبر خاطرى : لمن هذا النصر !؟ لقد نفخت هذا الصباح دخان سيجارى الكبير شارد اللب وأنا ألقى من الشرفة نظرة على جماهير لندن الراقصة الصاخبة من الفرح ٠ ترى ماذا تفعل جماهير موسكو الآن ؟ ٠٠ ان الفرح الحقيقى يجب أن يكون هناك ، فالحرب قد انتهت فى أوربا كما أراد ستالين بالضبط ، لا كما أردت أنا ، يقولون انى قدت بريطانيا الى النصر ٠٠ هذا صحيح ٠٠ الى النصر الروسى ، لا أخجل الا من شبح رجل

واحد : هو لويد جورج · هو وحده الذى يفهم حقيقة انتصارى ويستطيع أن يسخر منى ، لقد قاد ذلك الرجل الحرب الاوروبية الاولى ، فلم يفعل شيئا ، بل من الزيف والخطأ أن نزعم أنه قاد أحدا أو أمر ، لقد قبع فى انجلترا يشاهد عن بعد كيف يقود المارشال « فوش » جيوشه الفرنسية ، وكيف دارت معركة المارن ومعركة فردان ، كأنه أحد ارستقراطية اللوردات يراقب بمنظاره الكبير حركات الجياد فى سباق الدربى · وانتهت الحرب بانكسار الالمان ، وبسطت مائدة الصلح ، فخرج لويد جورج من مكمنه ووضع يده على المائدة الخضراء يغترف ما عليها من أرباح ·· وأراد النمر الفرنسي أن ينشب أظفاره فى الفريسة ، فخلصها منه بلباقة وأبقى على أنفاسها الاخيرة لتكون فى المستقبل شوكة تحد من طغيان النمر وانفراده بالسلطان فى غابة أوربا · وأراد الفيلسوف الامريكى « ولسن » أن يطرح أفكاره ليوزع الثمـرات بالعدل بين أهلها ، وينصـــف المظلومين ويحرر المستعبدين ، ويبدد المغانم من مخالب الأسد البريطـانى ، فتناوله لويد جورج بلطف ووضعه فى جيبه برفق · وأعاده الى بلاده كما يعاد الخطاب المغرم الى مرسله ·· هذا حقا هو النصر : النصر الانجليزى ! ·· من الانصاف لى أن أقول انى أردت الانتفاع بدروس لويد جورج ، وأردت أن أنهى الحـرب فى الظروف المناسبة لنا ، وتحاشيت تمكين الدب الروسى من البطش بفريسته والقضاء عليها القضاء التام · وسافرت الى كندا لابرام صلح مع ألمانيا وهى لم تزل على قيد الحياة ، وان كانت قد زال خطرها العسكرى ، فان وجودها فى قوة فرنسا الحالية على الأقل ، بل مجرد وجودها على أى شكل من الاشكال لخليق أن يشغل الدب بها طويلا ويشغله عنا ·· ولا يتيح له ذلك التفرد فى القارة ، والسيطرة عليها بتلك الصورة نفسها التى خفناها من هتلر وحزبه · لو ان الصلح تم فى ذلك الوقت لكان التوازن أيضا فى أوربا قد تم · ولكان النصر حقا نصرنا · فالجيش الاحمر كسب المعارك كما كسبها الجيش الفرنسى عام ١٩١٨ ، وبريطانيا هى التى تتزعم الموائد وتتحكم فى المغانم ، ولكن ستالين ذلك الداهية ·· أدرك هذه النية ·· لعنة الله على الروس ، لكأنهم يقرأون أفكارنا ·· ولم لا ، أنهم لا شك يدرسون تاريخنا وسياستنا وأساليبنا ··

نهض الروس يعارضون فى الصلح ويهذدون ، وجاءنى

زميلي ايدن من موسكو طائرا يفضي الى بأن هذه الخطةمستحيلة .
وان الروس في أيديهم ورقة أخيرة هي : اليابان ، ولم تكد
شقيقتنا وولية نعمتنا أمريكا تسمع كلمة « اليابان » حتى
ارتعدت فرائصها .. لا .. لا .. لا يجب اغضاب الروس ،
لأن أمريكا تطمع في انضمام روسيا اليها ضد اليابان ، وهكذا
قادنا ستالين الى أهدافه ، وسرنا كلنا خلفه ننتظر الساعة التي
يرى فيها هو انهاء القتال ..

دوننج ستريت رقم ١٠ في ...

تم الأمر وجربت القنبلة الذرية في هيروشيما وناجازاكي
واستسلمت اليابان .. يا للقدر ! .. لو ان القنبلة الذرية
تمت تجاربها قبل ذلك ببضعة شهور ، لتم كل شيء طبق
أغراضنا ، ولأبرمنا الصلح في الوقت الذي نريد نحن الانجليز
وبالشروط التي نراها متفقة مع مصالحنا .

لم يشأ لي الحظ توفيقا كتوفيق لويد جورج . هذا ما لا ينبغي
انكاره ، سيكتب التاريخ عنا غدا هذه العبارة : « كان لويد
جورج في حربه سياسيا لا مجاهدا . وكان تشرشل في حربه
مجاهدا لا سياسيا » ، الواقع أن كل فضلي كان الجهاد ..
الجهاد المعنوي على الأخص . ماذا كان ينتظر لأمة وحيدة
تدكها القنابل دكا وقد انهار حلفاؤها وسقطوا من حولها ..
وهي شبه عزلاء ؟ صمودي وصيامي وجهادي أنقذ بريطانيا
من غير شك ولكن ..

واشنجطن في ...

تركت دفة الامور للعمال يصنعون ما يشاؤون ، ولا أشك
في أنهم انجليز قبل كل شيء .. وان كانوا سيجنحون الى
مجاملة الروس . وتلك من كوارث ابتعادنا نحن المحافظين عن
الحكم ..

أمامي بصيص أمل واحد أصلح به ما أفسد القدر ، اذا
نجحت فقد حق على التاريخ أن يصحح عبارته ويقول انى كنت
مجاهدا وسياسيا معا .. أملي هو ادماج السياسة الامريكية
بالسياسة البريطانية ادماجا تاما لنواجه الخطر الروسي .

على أنه ينبغي الاحتياط في افهام الامريكان حقيقة « الخطر
الروسي » فالمقصود به في نظرنا نحن الانجليز « توسع »
الروس الذي يهدد أطراف الامبراطورية ، وسلطانها المطلق في

البحار السبعة ، ومزاحمتها لنا فى النفوذ السياسى والاقتصادى ، وليس هذا مما يعنى الامريكان عنايتهم مثلا بشئون اليابان والشرق الاقصى ، ولكن يجب توحيد السياسة ليصبح مايهمنا يهم الامريكان ، ولهذا التوحيد أو الادماج مزية عظيمة هى وضع السياسة الامريكانية تحت وصاية السياسة البريطانية ، أمريكا دولة هائلة فى الانتاج ، قوية فى المعدات ، غنية فى الموارد ، ولكنها لم تزل صبية فى السياسة ، وان طول عزلتها عن المشكلات الدولية ، وجهلها بمسائل الاستعمار والنفوذ ، واهتمامها بشئونها الداخلية ، كل ذلك حرمها الخبرة والدهاء والمران فى الميدان السياسى ، فهى لمدة أعوام أو أجيال شاءت أو كرهت ، ستظل معلقة بأصبع السياسة البريطانية العريقة ، وتلك هى الفرصة المواتية لنا نحن الانجليز ، نستطيع أن نتذرع بوحدة اللغة وتقارب الجنس والميول والخصال ، لنعمل على هذا الاتحاد ، لقد كنت عرضت على فرنسا مثل هذه الفكرة أيام محنتها لنستفيد من موارد مستعمراتها ، ومن أسطولها ومن رجالها . ولكنها فطنت لخبيئة الأمر ، فهى ذات عراقة فى السياسة هى الاخرى ، وقد صرح أحد ساستها بذلك قائلا ان معنى هذا الاتحاد عند الانجليز هو ربط فرنسا فى عجلة الامبراطورية ، تسير فى موكبها عضوا يأتمر باشارة الرأس الانجليزى المدبر ..

لا أظن أمريكا تفطن الى ذلك ، فهى أسلم طوية وأبسط فكرا ، وسنكون معها فى غاية اللياقة حتى لا تتنبه هذه الآلة الضخمة الى أن محركها مصنوع فى انجلترا ، يجب أن تكون لنا مهارة ذلك الرجل الضعيف النحيف الذى يمسك بزمام فيل هائل ، يحمل على ظهره الأعباء ، ويدوس به الاعداء ، ويقتلع به الاشجار ، ويدحرج الصخور ويستلب منه نابه وعاجه وانتاجه ، ويتفرج ويفرج الناس على ذنبه وأذنه وخرطومه .. والفيل راض فرح مبتهج ، يعتقد أن هذا الرجل صاحبه وحبيبه وخدينه ..

هأنذا فى واشنجطن أسعى الى هذا ، وأقوم برحلة فى أمريكا أدعو الى هذا .. فاذا وفقت فلن يقوم الى جانب عملى أى عمل سياسى آخر فى تاريخ العالم الحديث .

(طبق الأصل) — ٢٢ مايو ١٩٤٦ ..

١١

يا لها من خدعة !

في عام ١٩٤٠ نشرت في الصحف بيانا بعنوان : « نداء الى رجال الفكر » .. هذا نصه :

« لا ريب أن رجال الفكر في مصر قد تأملوا مليا تلك الخطبة التي ألقاها وكيل خارجية أمريكا « مستر سمنر ويلز » عند انتهاء المؤتمر العلمي للأمم الامريكية ، وقد أشار فيها الى ليل العصور الوسطى وفجر عصر النهضة ، وما تبعه من حركة أحياء العلوم الى أن قال :

« ليس في مقدورنا أن نتكهن بشيء عن احتمال العودة مرة أخرى الى ظلام القرون الوسطى على الأقل فيما يتعلق بشئون الفكر والروح ، في بلاد أصبح البحث الحر فيها مستحيلا وأي أمل بقى للاجيال القادمة ، ما دامت هناك دكتاتوريات ترغم الناس على أن يؤمنوا بالتزويرات التي تصطنع لهم ، ويقتنعوا بالأكاذيب التي تقدم لهم على أنها حقائق .. ثم تمنى أن يزول شبح الخطر الداهم على الحضارة ، ودعا الولايات المتحدة الى واجب الزود عن مدنية تدين لها بخير ما عندها .

هذه الصيحة القلقة على مصير الفكر المطلق ، لا بد أن يكون

لها صدى عميق فى نفوس مفكرينا ومفكرى الشرق الباعث لحضارة البحر الابيض ·· ولئن كان صوت أقدام القوةالوحشية وهى تسحق الأمم الحرة ، لم يزعج بعد رجال السياسة المتنابذين ، فان نذير الدمار المسلط على شؤون الفكر والروح كفيل أن يوحد جهود رجال الفكر ، وأن ينهضهم متساندين للدفاع بأقلامهم وقلوبهم عن حضارة ساهم أسلافهم فى وضع أحجارها الاولى ·

فالى اخوانى المفكرين والادباء أوجه هذا النداء وان العبرة التى تستخلص من قيامهم الآن قومة رجل واحد ، وارتفاع أصواتهم فى صيحة واحدة ، قد يكون لها أعظم الأثر فى توجيه صفوف أخرى طالما انتظرتها البلاد ·

***

أتأمل اليوم هذا الكلام وأقول لنفسى : يا لها من خدعة ! ·· كيف استطاع هؤلاء الحلفاء أن يدخلوا فى روعنا هذه الاوهام ؟ كيف استطاعوا هم أن يرغمونا على أن نؤمن بالتزويرات التى تصطنع لنا ، ويقنعونا بالأكاذيب التى تقدم لنا على أنها حقائق ·· عندما أعلنوا ميثاق الاطلنطى ، وصاحوا فى كل مكان هاتفين : « عالم واحد وحريات أربع » ! ··

كيف استطاعوا أن يثيرونا على القوة الوحشية التى تسحق الأمم الحرة ، فنصدقهم ونرتمى فى أحضانهم كما ترتمى الحملان فى أفواه الذئاب ·· ونفتح عيوننا فى آخر الامر لنرى أن لا قوة وحشية غير قوتهم ، وأن لا حرية لأمم صغيرة تنفذ من مخلبهم ·· ويتمزق لنا الستر عن عصابة من قطاع الطرق تلبس « الفراك » ، وجماعة من اللصوص تتكلم بلغة النبلاء ! ·

ثم كيف استطاعوا أن يصبغوا العالم بذلك اللون القاتم ، ويخيفوا المفكرين على مصير الحضارة ، وينذروهم بالعودة الى القرون الوسطى بفعل الخصوم ويوهموهم بأنهم هم حماة المدنية ، وأنهم هم نبراس الحرية ، ويستنهضوهم للدفاع معهم عن حقوق الانسان المهدرة ، ويستنفروهم للجهاد واياهم فى هذه الحرب الانسانية المقدسة ! ··

فاذا جهادهم يتوج بمجزرة لم تر الانسانية أحط منها يوم ألقوا القنبلة الذرية ليبيدوا بها مدينتين آمنتين بأكملهما :

« هيروشيما وناجازاكي » بسكانهما الوادعين المسالمين ! ..
واذا هم ولا حقوق للانسان عندهم الا اذا كان أبيض اللون ، أما السود فهم لديهم مبعدون محقرون منبوذون في أحيائهم السوداء .. يعتبرون أمريكيين اسما ، ويخدمون أمريكا فعلا ، ولا ينالون من حقوق الحرية والمساواة البشرية ما ينال غيرهم من بقية السكان .. واذا حرية الفكر .. الحد منها في ألمانيا كارثة على الحضارة .. ولكن الحد منها في روسيا الحليفة ، المنتصرة ، اجراء قومي ونظام داخلي لا شأن لأحد أن يشير اليه بانتقاد أو يومي اليه بامتهان ! ..

يا لها من خدعة .. وقع في شراكها كل غيور على المدنية وكل محب للفكر الحر ! ..

ولكن .. تلك مهارة الحلفاء ، وذلك سلاحهم الذي لا يفل ..

انهم لا يحاربون قبل أن يصنعوا راية معنوية تخفي أغراضهم الحقيقية ، راية خفاقة بأسمى المبادىء يؤلبون تحتها كل نفس متحمسة للمثل العليا .. لقد أشاعوا في الحرب الاوربية الاولى أن خصمهم غليوم الثاني خارج على المسيحية ، وأنهم يحاربون من أجل الدين ، ومن أجل الحق .. ولقد أذاعوا في هذه الحرب الأخيرة أن خصمهم هتلر خارج على الحضارة .. وأنهم يحاربون من أجل الحضارة ، ومن أجل القيم الانسانية العليا ..

ولكنهم في الباطن كانوا يعلمون أنهم انما يحاربون من أجل غرض لا علاقة له بقيم انسانية ، ولا صلة له بمثل عليا . غرض هو الى الغرائز الحيوانية أقرب ، وبشرائع الغاب أوثق ..

الى متى يبقى الفكر ألعوبة في يد القوة ؟ ..

والى متى يظل الفكر أداة دعاية في يد السلطان ؟ ..

في النظام الدكتاتوري يصدر الأمر الى الفكر فيطيع ..

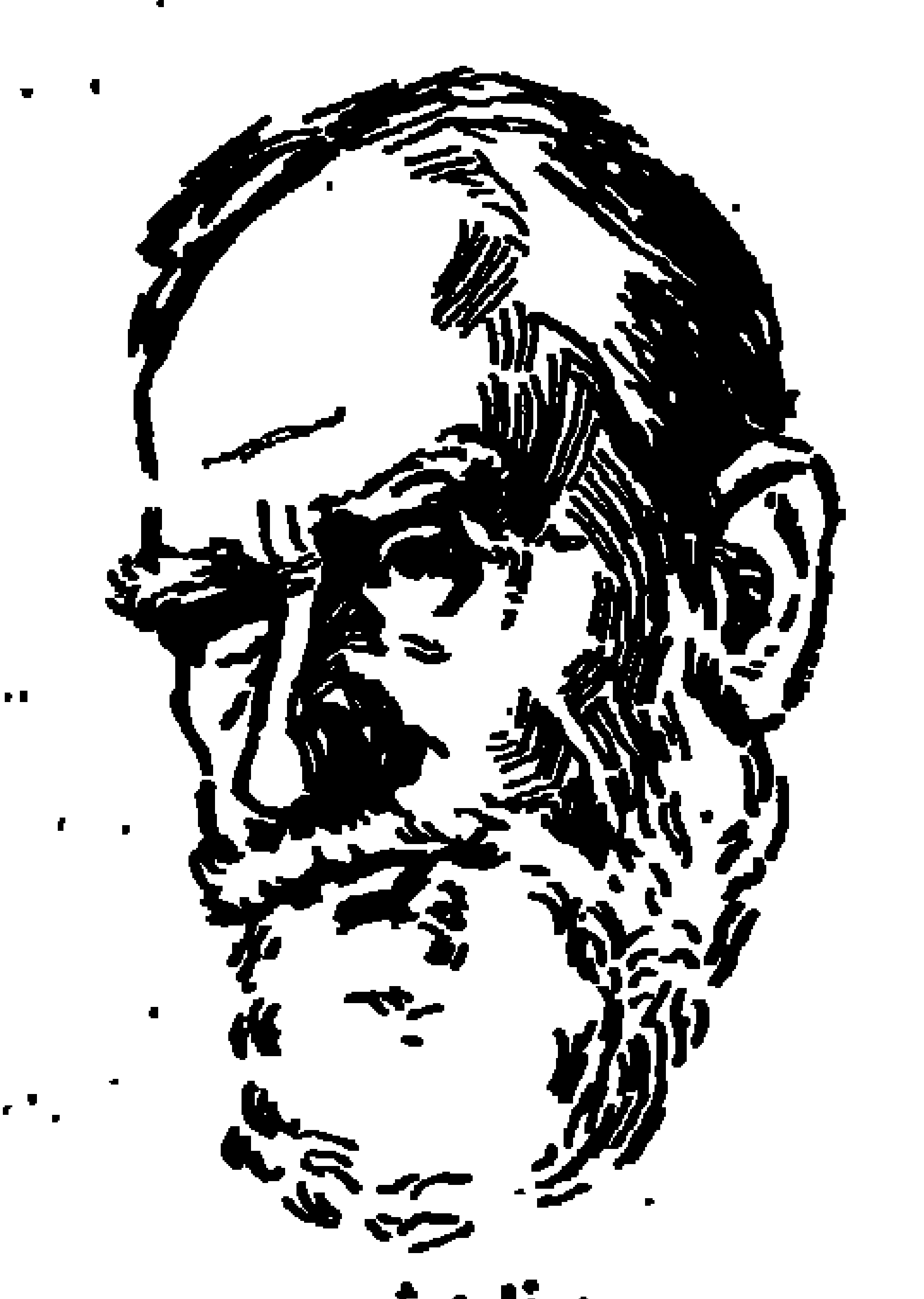
وفي النظام الديموقراطي تنصب الخدعة للفكر فيقع ..

أول فبراير ١٩٤٧ ..

●●●

١٢

إلى ذى اللحية البيضاء ..



برنارد شو

اليك يا برنارد شو أوجه الكلام . أنت يا من استطعت أن تكشف بطرف قلمك العابث ثوب الامبراطورية البريطانية بحواشيه المذهبة ، لتظهر من تحته حقيقتها المضحكة !. هنا كانت قوتك وهنا كان سر صفتك العالمية . لأن الناس فى بقاع الارض نسوا حافزك وسهوا عن منبتك ، ولم يدركوا الا أنك كاتب فى الانجليزية سما عن كل تحيز ، ليدفع ، الاعتداء

اليك يا برنارد شو أوجه الكلام .. أنت يا من استطعت أن تكشف بطرف قلمك العابث ثوب الامبراطورية البريطانية بحواشيه المذهبة ، لتظهر من تحته حقيقتها المضحكة ! .. هنا كانت قوتك وهنا كان سر صفتك العالمية .. لأن الناس فى بقاع الارض نسوا حافزك وسهوا عن منبتك ، ولم يدركوا الا

أنك كاتب فى الانجليزية سما عن كل تحيز ، ليدفع ، الاعتداء عن العدالة ، ويحارب العدوان على الانسانية ، وان صدر من دولته التى بلسانها ينطق وبلغتها يكتب ·· مصر لم تنس دفاعك عنها فى حادث دنشواى ·· وان كنت فى ذلك الوقت تعقد المقارنة بينها وبين « ايرلندا » ·· وطنك المهضوم ·· ولكن ها أنت ذا منذ أن حلت مسألة ايرلندا تهادن الانجليز ، فلا تسخر بهم الا السخرية التى ترفه عنهم ولا تنال منهم ·· ورضيت أن تلعب لهم وللدنيا دور « المهرج الذهنى » بدلا من المفكر الانسانى ! ··

شد ما يحتاج العالم اليك اليوم ، لتصف صورة الامبراطورية التى يختال بها الانجليز ·· وقد أصبحت كالضياع الباهظة النفقة ، تتكلف لامتلاكها وادارتها وصيانتها أكثر مواردها ، وصاحبها الانجليزى بذلك راض مزهو فخور ·· يلبس فى كل مساء رداء السهرة الاسود ، بقميصه المنشى الابيض ، ويجلس الى مائدة ، فى قاعتها الخالية من الوقود ، مرتعشا من البرد ، محاطا بتجلة الخدم والحشم فى ثيابهم الرسمية وأوضاعهم التقليدية ، ويتعشى « ببطاطسة » مسلوقة فى طبق وماء قراح فى كأس ·· ثم ينهض وهو يتضور جوعا بين مظاهر التكريم ومراسيم التعظيم !! ··

هذا شأن الانجليز ، انهم يحبون « السيطرة » الى حد الجوع فى سبيلها ·· ويعشقون « الامبراطورية » عشق روميو لجولييت ·· يخيل اليهم أنها يوم تموت يموتون ·· لعل شكسبير وضع هذه « المأساة » قصة رمزية عن الانجليز والامبراطورية ! ولكن الختام لم يحن بعد ·· ولعله يأتى قريبا ليريح العاشقين ويريح منهما الدنيا ··

بل انهم مثل كل محب ·· يرعى حياة الحب ولو فى غيره ·· فيعينه على تسلق السلم الى شرفة مطعمة ، اذا وجد فى ذراعيه خورا وفى ساقيه ضعفا ·· فهم يضعون هولندا الصغيرة الخائرة على ظهر أندونيسيا الكبيرة الصابرة ، كالقراد الذى يضع النسناس الظليق بطرطوره وجلاجله فوق متن الحمار المقيد بلجامه وزمامه ! ··

كل ذلك تراه أنت اليوم يا برنارد شو ولا تتكلم ولاتضحك !

أترى التسعين عاما التى بلغتها قد غيرت مزاجك ، فلم يعد يضحكك منظر الانجليز بما فطروا عليــــه من غباء معجون بالكبرياء ! ..

أم أن تسعين عاما فى مشاهدة هذا المنظر الواحد قد زهدتك فى الالتفات اليه ! .. فلك العذر اذا زعمت أن الانجليز عندك لم يعودوا يصلحون حتى لمجرد الهزء بهم ! ..

مهما يكن الأمر فأنت لا ريب تدرك فى قرارة نفسك أن هذه العجينة الانجليزية هى دائما « خميرة » الشقاق فى العــالم والشجار بين البشر .. منها يصنع خبز الشر الذى يســمم النفوس ، فتجحد العدالة والمساواة بين الامم ، وتوقع الفرقة والتفريق فى أسرة الانسانية ..

فيم اذن سكوتك عن الانجليز أيها المعمر الثرثار ؟ .. انك لم تزل تملأ الدنيا كلاما .. ولكنه كلام فى الهواء ، كأنه دخان سيجار ذلك المهرج الآخر .. فعلى مسرح انجلترا اليوم ممثلان يجيدان الصخب والهذيان .. أحدهما يرتدى ثوب رجل الفكر والثانى ثوب رجل السياسة ! ..

وكأنهما الآن متفاهمان أو متآمران ! كلما مس الأمر عظمة الامبراطورية ! ..

ما فائدة العمر الطويل ! .. كنت أحسب المعمر انســـانا انسلخ من قيود العصر والجنس ، وخرج من جاذبية الارض والدم ، وانفلت من حلقات الاجيال المحدودة ، ليلحق بغبـار الزمن الأكبر ، ويشرف من قمة أعوامه الكثيرة ، على البشرية وقد ضئولت حدودها فى نظره ، وتكتلت فى عينه ، وأمست أسرة واحدة ! ..

يا صاحب اللحية البيضاء ! .. ارتفع عن أرض الإنجليز ، وارسل لحيتك مع الرياح ، وصوتك مع الرعد ، وفكرك مع نور الشمس ، واغمر بوجودك العالم كله ، بسوده وبيضه ، كأنك من عناصر الطبيعة الخيرة الرحيمة ، التى لا تهادن ولا تتواطأ ، ولا تفرق ولا تميز بين شعب وشعب ، وهى تنشر برها وتمطر بركاتها ..

٢٢ فبراير ١٩٤٧ ..

١٣

إلى أخرى

أتحدى بريطانيا العظمى أن تقدم على حرب عالمية أخرى وهي غير مستندة الى صداقة مصر ٠

غدا يقول التاريخ ان السبب الاكبر فى انتصار بريطانيا فى الحرب الماضية يرجع الى معاهدة ١٩٣٦ ٠ واذا كان لهذه المعاهدة عيد وذكرى واحتفال فيجب أن يقام ذلك كله فى لندن لا فى القاهرة ٠

لقد أثبتت مصر أنها أمة شريفة المبدأ كريمة العنصر طاهرة الضمير ٠ تعرف كيف تحترم كلمتها ، وتحفظ عهدها وتصون امضاءها ، فمرت أمامها الاحداث ورأت بريطانيا بجوارها تخر على الاقدام ، تنزف من جراح قتاله ، وتتلقى الضربات الاخيرة التى تقصم الظهور ، ثم شاهدتها تلم شعث متاعها ، وتجمع فلول رجالها وتتراجع أمام العدو وقرب الاسكندرية ، مترنحة مذهولة ، لاهثة يائسة ، صوت مخرج لا تدرى أتلقاه أم لاتلقاه ، ومصير لا تعرف أهو الاسر أم القبر ٠ ٠ كل ذلك ومصر معها بكل معونة ومؤونة ، دون تبرم أو تذمر ، ودون كلمة من أو تمرد أو معايرة أو معاتبة ، كذلك الذى وقع بين جنودها من

الانجليز وجنود المارشال سمطس الذى يحتج اليوم على الجلاء باسم الامبراطورية ويتبجح ! ..

قامت مصر بهدوء ورباطة جأش تعين وتنقذ وتؤازر لانها لا تنطوى على غدر .. ولانها تؤمن بأن صك الصداقة ليس قصاصة ورق ، بل وثيقة شرف تحمل توقيعها ـ هى الامة الصغيرة الضعيفة ـ فلا بد من الوفاء للحليف حتى ان أوردتها معه هذه المحالفة الممضاة موارد الحتوف .. تلك هى مصر .. ليست نهازة للفرص الدنيئة ، ولا طعانة من الخلف فى الظهر المكشوف ..

ترى ماذا كان يحدث لو أن مصر كانت طليقة من كل قيد ، حرة من كل تحالف أو تعاهد أو توقيع .. وأن مركز بريطانيا فيها خلال حربها الضروس مركز المحتل الغاصب بغير سند شرعى .. وكانت مصر تسمع وتعلم بما يجرى فى بلاد وقع عليها اغتصاب غير شرعى مماثل كفرنسا وتشيكوسلوفاكيا والنرويج .. وما نظمه أهالى تلك البلاد الابطال من حركات المقاومة السرية التى نهضت لعرقلة حركات المحتل ونسف عتاده وقطع مواصلاته وحرق مؤنه والاخلال بأمنه والعبث بمصانعه ومرافقه ؟ ..

ماذا كان يحدث لو أن مصر ـ شعبا وحكومة ـ رأت نفسها فى حل من أن تفعل مثلما فعلت بلاد أوربا المحتلة ، ولا رباط صداقة أو معاهدة أو محالفة يكتف ذراعيها ويغل يديها ، فقامت قومة رجل واحد وانقضت على بريطانيا المحتضرة فى العلمين ، فحطمت مواصلاتها ونسفت عتادها وحرقت مؤنها وأشاعت فى صفوفها المبعثرة أشنع الفوضى وأناخت ظهرها المنحنى بأفظع المتاعب وأثقل الاعباء ؟! .

أكان يقدر عندئذ لبريطانيا النصر ؟ .. ان العلمين كما تعلم الدنيا اليوم كانت نقطة التحول .. ولو كسرت بريطانيا يومئذ لما قامت بعدئذ لها قائمة ! .. وكان هذا الانكسار من أيسر الامور ، لقد كان معلقا بأصبع مصر .. لو لم تكن مصر مطبقة على ورقة صداقة وحلف وصدرها مغلق على شرف وضمير !

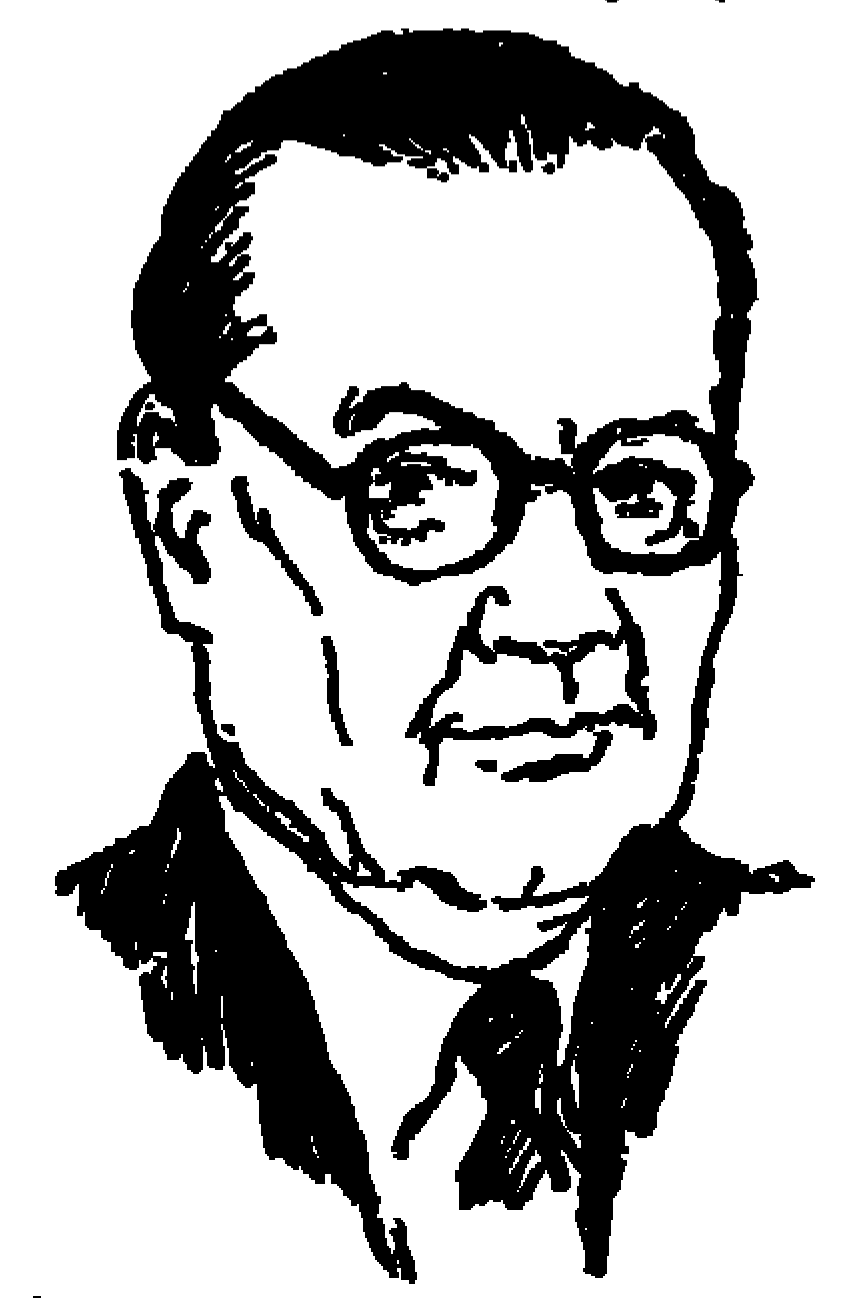
من أجل هذا أقول ان صداقة مصر ألزم لانجلترا من صداقة المارشال سمطس وجنوده ! .

ومن أجل هذا أتحدى بريطانيا أن تقدم على حرب قبل أن تكتف يد مصر بمعاهدة صداقة ..

صداقة مصر لبريطانيا ضرورة حربية حالة .. ولكن صداقة بريطانيا لمصر ليست أكثر من اجراء مرغوب فيه ..

نحن نستطيع الانتظار بغير قلق ، ما دامت في نفوسنا وطنية وفي قلوبنا ايمان .. أما الانجليز فكلما لاح شبح الحرب اهتزوا قلقا وفرقا .. لانهم يعرفون ان مصر الطليقة من قيود المعاهدات والصداقات أخطر عليهم في الشرق الاوسط من أمة أوربية مدججة بالسلاح .. وأنهم يدركون ما نستطيع أن نصنع في فترة اليأس من المفاوضات والمحالفات .. اذ لم يكن لدينا سلاح غير الانكباب على دراسة حركات « المقاومة السرية » ونظمها وأساليبها التي أدت الى تحرير فرنسا وغيرها .. وايفاد البعوث الى رؤساء هذه الحركات يفقهونها في خير الطرق والوسائل .. لكفى بهذا سلاحا نتربص به لبريطانيا في أيامها السود ! . لقد علمتنا الحرب الاخيرة ان الامم العزلاء لها سلاحها الفتاك وقوتها غير المنظورة .. أيها الشعب المصرى ! .. أنت صاحب حق .. ولكن اياك أن تطالب بحقك مطالبة الشحاذ .. لوح بشيء من القوة .. ان الحق العارى من القوة شحاذ يستجدى ! ..

وأنت أيها المفاوض المصرى ، اطمئن واهدأ نفسا وكن رابط الجأش شجاعا ، واعلم ان « بيفن » ليس مغفلا .. وحتى « تشرشل » ليس مغفلا .. كل ساسة بريطانيا يعلمون علم اليقين أن صداقة مصر المكتوبة المضاة ، هى خط الدفاع الاول عن بريطانيا العظمى ! ..



١١ سبتمبر ١٩٤٦ ..

١٤

هل ذهبت الروح ؟

•• أمة أتت فى فجر الانسانية بمعجزة « الهرم » لن تعجز عن الاتيان بمعجزة أخرى •• أو معجزات ! •• أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون •• ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء من بين رمال الجيزة ! •• لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد ! ••

***

••• ما غابت شمس ذلك النهار ، حتى أمست مصر كتلة من نار •• واذا أربعة عشر مليونا من الانفس لا تفكر الا فى شىء واحد ! ••

الرجل الذى يعبر عن احساسها •• والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة ، قد أخذ وسجن ونفى فى جزيرة وسط البحار •• » •

« وانقلبت القاهرة رأسا على عقب •• فأغلقت الحوانيت والمقاهى والبيوت وقطعت المواصلات وعمت المظاهرات •• وقام نفس الهياج فى جميع أرجاء الأقاليم والارياف •• وان الفلاحين لأشد من أهل المدن فى اظهار احتجاجهم وغضبهم •• فلقد

قطعوا الخطوط الحديدية ، ليمنعوا وصول القطرات المسلحة ، وأحرقوا دور البوليس ٠٠ ان كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام ٠٠ الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة ، ولم يفهم أحد اذ ذاك ان هذه العاطفة انفجرت فى قلوبهم جميعا فى لحظة واحدة ، لانهم كلهم أبناء مصر لهم قلب واحد ٠٠ » ٠

***

« ٠٠ ان هذا الشعب الذى نحسبه جاهلا ، يعلم أشـــياء كثيرة ٠٠ ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله ، ان الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم ، والقوة فى نفسه ولا يعلم ٠٠ هذا شعب قديم ٠٠ جىء بفلاح من هؤلاء واخرج قلبه ، تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة ، من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض ، وهو لا يدرى ٠٠ نعم ، هو يجهل ذلك ، ولكن هناك لحظات حرجة تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب ، فتسعفه ، وهو لا يعلم من أين جاءته ؟! ٠٠ هذا يفسر لنا ٠٠ تلك اللحظات من التاريخ التى ترى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت ، وتأتى بالأعاجيب فى طرفة عين ؟ ٠٠ كيف تستطيع ذلك ان لم تكن هى تجاريب الماضى الأبية ، قد صارت فى نفسها مصير الغريزة » ٠

***

رجعت الى هذه الاسطر من « عودة الروح » لأذكر نفسى بشعورى فى ذلك العهد ، لقد مضت ثلاثون سنة على حوادث الثورة ٠٠ رأينا خلالها من المظاهرات والاضطرابات والاضرابات ٠٠ ولكن شتان بين ما حدث فى الماضى ، وما يحدث اليوم ! فى عام ١٩١٩ لم تكن هنالك منظمات ولا هيئات ولا أحزاب ٠٠ ترتب وتهيء وتحرض وتدفع ؟ ٠ ولكنها يقظة مفاجئة ، وانفجار خاطف ، انطلق من جوف مصر كلها فى وقت واحد لا يدرى أحد من محركه ؟ ذلك أنه لم يكن له محرك غير ضمير الوطن وحده ٠ انفجار لم يذهل الإنجليز وحدهم ومن خلفهم العـ كله ٠٠ بل أذهل زعماء مصر أنفسهم ٠٠ وعندما بلغ سعد زغلول ، وهو لم يزل فى المنفى ، خبر وثبة مصر لم يصدق ما سمع ٠٠ وعندما عاد ورأى بعينيه مصر كلها شعلة تتوهج ، بهر الضوء بصره ، ثم جعل يتفرس فيما حوله ٠٠ وكأنه يسائل نفسه :

أهذا حقا بلده الذى تركه منذ قليل ، أم هو بلد آخر ، ليس له به عهدا .. ما كان أحد منا يدرك وقتئذ مدى القوة فى داخل نفوسنا ! .. كان ذلك منذ ثلاثين سنة .. أما اليوم فهنالك من يتساءل : هل احتفظنا بتلك الروح ؟ .. أو انها ذهبت كما يذهب الريح ؟ .

كثير ممن عاصروا الثورة القديمة ، يهزون رؤوسهم أسفا ويقولون : أعجوبة ظهرت مرة ولن تعود .. أما الشباب الذى لم يعاصر تلك الثورة فيسمع ذلك ويهز رأسه عجبا ويقول : نحن اليوم أيضا نثور ونضرب ونتظاهر ونخرب .. فما الفرق بين ثورتنا وثورة السابقين ؟! .

الفرق فى رأيى هو أن كل طائفة اليوم لها ثورتها .. شباب الجامعة يثورون لما يهمهم .. والعمال يثورون لمطالبهم .. والموظفون يثورون لمصالحهم .. ثورات كثيرة حقا . لكنها مختلفة الهدف .. متعددة الاسباب ! ..

لم تعد الثورة تنفجر من قلب واحد .. فى وقت واحد .. لقصد واحد .. ولكنها تنفجر من قلوب عدة .. فى أوقات متفرقة .. واتجاهات متباينة .. روح مصر الحقيقية لم تذهب .. ولن تخمد .. هذا ايمانى الذى لن يزول .. ومنذ بدت هذه الروح لعينى عام ١٩١٩ تملكتنى عقيدة أن هذا الذى أرى ليس شيئا جديدا ولا طارئا .. انما هو شيء موجود دائما .. باق أبدا .. ولكن روح مصر تنام أحيانا عندما ينساها أهلها ، فلا يوقظونها .. وتتبدد أحيانا عندما يختلس منها أبناؤها أقباسا ، ينفقونها فى شتى الأغراض .. وتحار أحيانا عندما يتعدد الزعماء ، فيقودونها كل فى طريق .. وهى تظل هكذا فى نومها أو بددها أو حيرتها .. الى أن يتيح لها القدر ، بين فترة وفترة ، من الظروف والرجال والاحداث .. ما يدفعها الى وحدة الغاية والسبيل والقيادة .. عند ذلك يرى العالم العجب . ويصيح الناس .. ويهمس التاريخ :

أنظروا لقد تكررت المعجزة ، وعادت الروح ! ..

١٣ نوفمبر ١٩٤٨ ..

١٥

هذه هى الحرية الشعبية

النظام ، الديمقراطية ، الوطنية ، صفات رأيتها مطبوعة لا فى لوحة داخل اطار تزين الجدار ٠٠ بل فى أعمال طبيب سويسرى للاسنان ، دخلت عيادته ، وهو رجل مشهور فى مهنته ٠٠ مرتفع الأجر ٠٠ كثير الزوار ، لا يظفر طالبه بموعد قبل أسبوع أو عشرة أيام ٠٠ فما وجدت فى بهوه غير ممرضة ٠٠ وما أبصرت في قاعة انتظاره أحدا ينتظر ٠٠ أين زبائن هذا الطبيب ؟ ٠ انهم يأتون فى مواعيد محددة ، ومن تخلف ألغى ميعاده ، وكى يأتى فيجد سلفه فى حجرة العلاج ، حتى يخرج فيحل محله ٠٠ وهكذا دواليك ٠٠ قلما جمعت قاعة الانتظار زائرين ٠٠ هذا هو النظام ٠٠ وان من بين زبائن الطبيب وزراء وسفراء وأصحاب ملايين فما استطاع واحد منهم أن يمتاز بلحظة أو لفته أو اشارة أو تحية على الآخرين ٠٠ هـــذه هى الديموقراطية ٠٠ وأدهشني ما رأيت فى قاعة الانتظار من صحف مصور ومجلات ملونة كلها دعاية للسياحة فى سويسرا « وطنه » تظهر روعة مشاتيها فى الجبال والسهول المغطـــاة بالجليد ، ومحاسن مصايفها في المروج والاعالى المكسوة بالسندس الاخضر ٠٠ هذه هى الوطنية ٠٠

***

حادثت الرجل فيما لاحظت عليه من هذه الصفات الثلاث ؟ ؛

فقال بعد تأمل ٠٠ وكأنه لم يفطن الى ما عنده من مزايا :

ـ أعتقد أن هذا راجع الى ما تلقيناه من تربية في منشأ حياتنا ، وأعمق هذه التربية أثرا في نفس شعبنا : الخدمة العسكرية الاجبارية ، ففي سويسرا يفرض على كل مواطن ، مهما يكن علمه أو أسرته أو ثروته ، أن يؤدي الخدمة العسكرية الاجبارية ٠٠ وهي أحيانا قد لا تتجاوز ثلاثة أشهر للفرد الواحد ، ولكن تصور الفائدة التي يجنيها كل فرد من الامة بعد هذه الشهور الثلاثة ٠٠ انه سيتعلم النظام والخضوع للقوانين ، والطاعة للصالح العام ٠٠ وسيعرف الديموقراطية الصحيحة ٠ لأن ابن الوزير يزامل ابن الحقير ٠٠ وابن الطبقات الموسرة يؤاكل ابن الطبقات الفقيرة ٠٠ وسيؤمن بالوطنية لان المدافع عن الوطن ليس فئة من الشعب ولا طائفة من الامة ٠٠ ولكن الجميع توضع على أكتافهم البندقية بلا استثناء ٠٠

***

سمعت هذا الكلام من ذلك السويسري ، وقلت في نفسي :

ـ حقا تلك هي المدرسة الشعبية التي تنقصنا « الجامعة العسكرية الاجبارية » للجميع بغير استثناء ٠

وتخيلت الشعب المصري كله أو على الأصح جيله الجديد من الرجال ، يصهر في ذلك « المصنع الانساني » الضخم !! ٠٠ يدخل بابه جيل هزيل نشأ على العبودية والفوضى ، لا يعرف احترام النظام ولا استعمال السلاح ، لم يفهم من الديموقراطية غير صندوق الانتخاب يشتري الاغنياء أصواته ببضع ولائم وبضعة دراهم ، ولا يدرك من الوطنية سوى كلمات وعبارات وهتافات ، ولا من المواطن المدافع غير تلك الطبقة الجاهلة المعدمة المحرومة المنكوبة تؤخذ للفرز العسكري دون الناعمين والمحظوظين ، كما يفرز الاشقياء من السعداء ، تشيعهم ولولة النساء ونحيب ذوي القربى ورثاء المشفقين من الاخوان والزملاء ٠

***

تصورت هذا الجيل بأغنيائه وفقرائه ٠٠ بوجهائه وخفرائه ، بمتعلميه وجهلائه ، يلقى كله في صهريج « الخدمة العسكرية الاجبارية » ليخرج بعد ذلك ، وقد عرف كل فرد فيه كيف يطلق بندقيته ، وكيف يستيقظ في الفجر عند صوت النفير ٠٠

وكيف يحترم المواعيد ويلبي النداء ويحرص على النظام ويطبق القانون ، ثم كيف يستمتع بالهواء الطلق والالعاب الرياضية وينعم بالصحة البدنية ٠٠ ويخشوشن مترفوه فيقاسمون فقراءه شظف العيش ويتساوون جميعا ، لحظات من الدهر في النظرة الى الحياة ، فاذا عقلية واحدة قد تكونت لهذا الجيل ، وشعور واحد قد نبت ، تلكهي الديموقراطية الحقيقية ، مساواة في المسئولية وتجانس في الشعور والعقلية ٠٠ ثم شيء آخر بعد ذلك ٠٠ ايمان من الجميع بأن الزائد عن الوطن اذا جد الجد هو الجيل كله : أغنياؤه وفقراؤه ، عظماؤه وحقراؤه ، متعلموه وجهلاؤه ٠٠ كلهم سيذهب الى الميدان كما ذهب الى الخدمة العسكرية ٠٠ وكلهم سيحمل البندقية هناك كما حملها هنا ٠٠ الجندية إذن مجد يقابله الناس بالفخر ٠٠ وليس ضريبة شقاء يدفعها أهل الحرمان بين العويل والبكاء ٠٠ تلك هي الوطنية الحقة : الوطن للجميع والجميع سيمتشقون في سبيله الحسام ٠

***

النظام ، الديموقراطية ، الوطنية ٠

دروس ثلاثة لازمة لكل شعب راق ، تهيأ للحياة ، وتربي للكفاح ، لا أوى أسرع ملقن لها ولا أضمن مدرب من تلك « المدرسة الانسانية » الكبرى : الخدمة العسكرية الاجبارية ٠

٢٨ ديسمبر ١٩٤٦ ٠٠

١٦

أنشودة الأغنياء

كنت ذات يوم فى حانوت حلاقة ٠٠ فقال لى العامل الذى يحلق لى :

ـ أنظر الى أصبع يدى التى بها أرتزق ٠٠ بها وجع يقتضى جراحة ٠٠ ومواردى لا تسعفني بأجر العلاج ٠٠ ولى أطفال فى المدارس أنفق عليهم ٠٠ ماذا أفعل ؟ وبأى عقل أعمل ؟ ٠٠

وكان بجوار هذا المسكين زميل أجنبى ، يبدو عليه النشاط والبشر والمرح ٠٠ فقلت لحلاقى :

ـ زميلك الاجنبى هذا ، أهو يتقاضى مثلك أو أكثر منك ؟ ٠

فقال :

ـ يتقاضى مثلى عين الأجر ٠٠ ولكن هناك فرقا شاسعا بينى وبينه ٠٠ ان الجالية الأجنبية التى ينتمى اليها هذا العامل الاجنبى نظمت شئون طبقاتها العاملة والفقيرة ٠٠ فهل تصدق أن زميلى هذا يرسل كل أولاده الى مدارس الجالية بالمجان ٠ ويعالج هو وكل أسرته في مستشفياتها بالمجان ٠٠ ويستطيع أن يحصل على الكثير من مطالب العيش وضرورات الحياة بالمجان ٠ كل هذه المزايا التى يتمتع بها تجعله فى مستوى أرقى بكثير من مستوى زميل مصرى مثلى يعيش فى وطنه وأهله وحكومته

وأمته ·· لأن أجره قد تضاعف بتلك المساعدات التى تقدمها له بالمجان أمته · وأجرى قد تضاءل بتلك الأعباء التى يفرضها على اهمال أمتي · نحن العمال المصريين قد لا تهمنا زيادة في الاجور بقدر ما تهمنا زيادة في المزايا والمساعدات التى تخفف عن كواهلنا بعض النفقات ·

فهززت رأسي ولزمت الصمت ·· ولكنى جعلت منذ ذلك اليوم أفكر في مصير هذه الطبقات العاملة ، وأفكر في واجبات هذه الطبقات الحاكمة ·

انهم يتحدثون كثيرا عن محاربة الفقر والجهل والمرض ، ويعتمدون لهذه الحرب الملايين ، ويرسمون لها الخطط ·· ولكن أكثر الناس لا يشعرون أن الأمر جد ·· فما أكثر البرامج التى تقرر في الورق ، وما أكثر الارقام التى ترصد في الميزانيات ، ولم يزل الفقير تفرض عليه باهظ الاعباء ، شأنه شأن الغنى سواء بسواء اذا أراد مقاومة الجهل أو مواجهة المرض ! ··

للشعب المصرى حاسة خفية اكتسبها من قدمه في الزمن وعراقته في التجاريب · شعوره صادق في أغلب الاحيان ، وقلما يخطىء احساسه مهما دوت في حوله دقات الطبول ·· فهو لم يقابل الصيحة الرسمية بمحاربة الفقر والجهل والمرض الا بهدوء العارف بخفايا النفوس ·· ولعله تمتم في السر : « كلام الحكام مدهون بزبده ، اذا طلع عليه نهـار « الواقع والحقيقة » ذاب » ! ··

وكيف تريد من الناس أن تصدق وهم يسمعون خطبا ولا يرون ذهبا ·· يرون أصحاب الاموال يخرجون ألسـنتهم بالكلام ولا يخرجون « محافظهم » بالنقود ؟ ·

هل يوجد في بلد من بلاد العالم اليوم أغنياء يدفعون ضرائب بالضآلة التى يدفعها أغنياء مصر ؟ ··

أرسل الى أخيرا ناشر انجليزى دفعة من حساب كتاب لى مترجم في انجلترا ·· ففرحت بالمبلغ · فلما وصلنى وجدت الحكومة الانجليزية قد استولت على أكثر من نصفه ضريبة ·· فسخطت أول الامر ·· ولكنى لم ألبث أن تذكرت أن الامر فرض على الجميع ·· وأن من الاغنياء هناك من يقبضون واحدا في المائة من ايرادهم وتستولى الحكومة على الـ ٩٩ ٪ ·· انها

المصادرة بعينها تفرض للصالح العام ٠٠ فلا ندهش اذن اذا وجدنا الطبقات العاملة والفقيرة تجد فى انجلترا كل المزايا المجانية التى تشعرها بأنها عضو حقيقى فى أمة حية ٠٠

هل يقبل الغنى المصرى أن يدفع للحكومة ضريبة تصل الى ٥٠ ٪ فقط من ايراده الكبير ؟ ٠٠

اليوم الذى تفرض فيه هذه الضرائب فى بلادنا هو وحده اليوم الذى تصدق فيه أن الأمر جد لا هزل فيه ٠٠ وأن محاربة الفقر والجهل والمرض ، ضرورة أوحى بها ضمير أمة ، لا أنشودة تتفكه بها أشداق الاغنياء والرؤساء ! ٠٠

٢١ سبتمبر ١٩٤٦ ٠٠

١٧

إذهب بغير ذهب

رقد النبي على فراش الموت ، وطفق ينظر الى ابنته فاطمة وهي تبكي على مقربة منه ، بغير صوت ٠٠ فتحامل على نفسه ثم همس :

ـ لا تبكي يا بنية ! ٠٠ قولي انا لله وانا اليه راجعون ، فان لكل انسان بها من كل مصيبة معوضة ٠

ـ ومنك يا رسول الله ؟ ٠٠ ،

قالتها فاطمة وهي تكفكف دمعها ٠٠ فأجاب النبي :

ـ ومني ٠٠

وكانت زوجة النبي عائشة تراقبه ، جامدة العبرة ، شاحبة الوجه ، مكلومة الفؤاد ٠٠ فقالت لفاطمة هامسة :

ـ انه يوعك من الحمى !! ٠٠

وفجأة نهض النبي قليلا وقال لزوجه :

ـ يا عائشة ! ٠٠ ما فعلت بذلك الذهب ؟ ٠٠

ـ أي ذهب ؟ ٠٠

ـ الدنانير الستة التي عندي ٠٠

ـ هي عندي ٠٠

لفظتها عائشة ، وقد خالجها بعض الدهش لاهتمام النبى بهذا المال ، وهو على تلك الحال من الكرب والشدة ٠٠ ولكن النبى بادر يقول :

ـ ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وهذه عنده ! ٠٠ انفقيها كلها صدقية ٠٠ ان النبى لا يورث ! ٠٠

فعاهدته عائشة قائلة :

ـ سأنفقها ٠٠

عندئذ بدت الراحة فى وجه النبى ٠٠ ورقد وهو يهمس :

اللهم توفنى فقيرا ، ولا توفنى غنيا ، واحشرنى فى زمرة المساكين ! ٠٠ الآن استرحت ! ٠٠

***

وقليل من البشر من يريد أن يستريح وهو على فراش الموت ! لأن الايمان لا يحكم النفوس ٠٠ ولكن شيطان الغرور ! يتجرد الانسان من روحه ولا يتجرد من ذهبه ٠٠ لا يؤمن حقا بأنه سيلقى الله ، بل سيلقى ورثة أنبتتهم مشيئته من أعماق القبور ! ٠٠ ما من مخلوق يريد أن يترك الدنيا لخالقها يوم يذهب ٠٠ ولكننا نريد قبل أن نذهب لنلقى الخالق ، أن نفرض عليه ارادتنا مكتوبة مسجلة ، لتنفذ فى الارض والناس من بعدنا ! ٠٠ يا لصبر الله علينا وعلى جبروتنا ! ٠٠

ولكن الله يعرف كيف يسخر من مشيئتنا وخيلائنا ٠٠ ويهزأ بذلك الخلف الذى اعتقدنا أننا حصناه ضد الفقر والمسغبه ، وأمناه من العوز والحاجة ٠٠ وعلى قدر المال الذى ترك له تكون اللطمة التى تصيبه من السماء ! ٠٠

أيها الاغنياء لا تسرفوا فى الخيلاء ، رحمة بأبنائكم ٠٠ اتركوا لهم قدرا بسيطا يعينهم على الكد فى الحياة ، ولا يقعدهم عن السعى والاجتهاد ٠٠ ورثوهم قسطا صغيرا يدعم فيهم الشخصية ولا يهدم فيهم الهمة ٠٠ أما الفضل والبقية ٠٠ فاجعلوهما من حق الناس فى أرض الله ٠٠ حتى تستطيعوا أن تقولوا لله يوم تلقونه : « تركنا لك ملكك تصرفه بمشيئتك أنت تعاليت ! ٠٠ وانا لنؤمن بك وبرحمتك ، فارع بعنايتك أبناءنا فيمن ترعاهم من عبادكم ! ٠٠٠٠

كل أغنياء الامم المتحضرة قالوا ذلك لله في صورة أخرى دون أن يشعروا : قالوها في صورة « ضريبة الميراث » التي تجرد المتوفى من أكثر ثروته لتضمها الى الدولة تنفقها في مرافق الناس وفي انشاء المساكن والمستشفيات والمدارس والمتنزهات للطبقات الفقيرة .. لذلك عنى الله بأمرهم .. وغير مابهم لانهم غيروا ما بأنفسهم .. فجعل من الابن رجلا مجدا مناضلا يفوق أباه فيما بلغه من الفوز والنجح .. وجعل من الناس دولة موفورة الرخاء ، مرهوبة الجانب مرفوعة المكان ؟ ..

أما أغنياؤنا فأبوا أن يؤمنوا بالله ، أو بأبنائهم أو بأمتهم .. فأبوا أن يكون في بلدهم مثل هذه الضريبة .

لا يريد أغنياؤنا أن يغيروا ما بأنفسهم من العمى والكفر .. ماضين بكل دانق من كنوزهم الى القبور ، تاركين كل تراثهم العريض لوارث مغرور .

لذلك لن يغير الله ما بهم .. ولن يصيب على خلفهم الا الحمق والغباء والفساد !! .. وعلى قومهم الا هذا الجهل والفقروالمرض ! وعلى دولتهم الا هذا الكيان العليل ، والجناح الكسير ، والمكان الذليل ! ..

٢٨ فبراير ١٩٤٨ ..

٧١

أحجار على البطون

جاء فى كتاب « تيسير الوصول » للشيبانى هذه الاحاديث :
قالت عائشة زوجة النبى :
« كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا ! .. » الخ ..
« ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد الا احداهما تمر ! »
وقال ابن عباس :
« كان رسول الله يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاويا ، لايجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير ! » .
وقال عمر :
« لقد رأيت رسول الله يظل اليوم يلتوى من الجوع ، ما يجد من الدقل ، ما يملأ به بطنه ! » ..
وما الدقل الا ردىء التمر ! ..
وقال أبو طلحة :
« شكونا الى رسول الله الجوع ، ورفعنا ثيابنا عن حجر ، فرفع رسول الله عن حجرين ! .. » .
وقال ابن عباس :
« رأى رسول الله فى يد رجل خاتما من ذهب ، فنزعه وطرحه وقال :

يعمد أحدكم الى جمرة من نار فيطرحها في يده ! ..

بهذه البطون الخاوية من لذائذ الطعام ، وهذه الأكف الخالية من بهارج الزينة ، أضاء العرب في الارض نور الروح ، وأقاموا للايمان منارة ، وأمعنوا في الفتوح ، وبنوا في التاريخ حضارة .

ولكن .. مع الأسف .. أخشى أن يكون « جمرة » الذهب هي اليوم حقا كل النور المنبعث من الشرق !! ..

جاء في كتاب « عالم يولد » للمفكر الالماني « كيسرلنج » هذه السطور :

« ان أوروبا هي التي تقوم اليوم بالدور التاريخي الذي قامت به فلسطين .. أرض الانبياء .. في محيط الامبراطورية الرومانية ، لم يعد في مقدورنا اليوم أن ننتظر النور الروحي من الشرق !! .. ان الشرق سيصبح منذ الآن هو الرمز الصارخ للمادية .. على الرغم من وجود قلة لم تزل تعيش فيه محتفظة بعمق فكرها وصفاء روحها !! .. أوروبا وحدها الآن في ذلتها وبؤسها وضعفها (وجوعها) هي التي يمكن أن يشرق منها ذلك النور !! ..

***

أمن الممكن حقا أن يحدث هذا ؟ ..

اذا تزل الشرق عن روحه أيضا لأوروبا ، فما الذي سيبقى له ؟ ..

لن يبقى له شيء حتى ولا اسمه !! .. لقد كان الشرق شرقا ، أي منبعا للنور الروحي ومهبطا للدين والايمان .. يوم كانت فيه الرؤوس تجوع والاجسام تشبع ، الطبقات العليا تصوم وتزهد ، والطبقات الدنيا تطعم وتقنع ! ..

ان الجوع لازم للرؤوس قاتل للاجسام .. ولا يضيء رأس الا وهو ظمآن ..

الأمة كالمسرجة لا يشع لها ضياء ، الا اذا كان أسفلها في الزيت ، وأعلاها في الهواء !! ..

ولكن هل من الحق أن الشرق سيصبح منذ اليوم هو الرمز الصارخ للمادية ؟ ..

لا لشيء الا لأن طبقاته العليا غرقت في الترف ، وتمرغت في الذهب ، وبشمت من الشبع ، وعميت من الطمع ؟! ..

نعم لا لشيء الا لهذا سيصبح الشرق رمزا للمادية ! ..

فان الطبقات العليا وحدها هى التى تقر فى الامم مثلها العليا ! ..

لأن رؤوس المصابيح هى وحدها التى ينبعث منها النور أو الظلام !! ..

فاذا ربط القادة على جباههم أحجارا من الذهب ، فقد عبد الذهب ! ..

واذا ربطوا على بطونهم أحجارا من الجوع ، فقد مجد الروح ! ..

واذا مجد الروح فى أرض ، فقد بزغ فيها نور عزة ، وطلعت شمس حضارة ! ..

١٣ مارس ١٩٤٨ ..

١٩

لست شيوعيا .. ولكن

عندما التحقت بالسلك القضائى فى أول الشباب ، دعيت الى مقابلة النائب العام ، فجعلنا نتبادل الحديث فى شتى الشؤون الى أن عرجنا على موضوع دراساتى فى جامعة باريس .. فاندفعت أقول له بغير تحفظ :

ـ كنا ندرس هناك تعاليم كارل ماركس .. وكنت من المهتمين بدراسة الشيوعية ! .

فصاح النائب العام فزعا :

ـ شيوعية ! .. وكيل نيابة شيوعى ! .. يا للمصيبة ! ..

فهدأت من روعه . ووضحت له أنها كانت دراسة نظرية فى الكتب . لأن برنامج الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى كان يتطلب منا بحث النظريات الاقتصادية على اختلاف مراميها ، وما الجامعة الا ميدان حر تتصارع فيه الآراء .. ولقد بنى

« ماركس » مذهبه على أساس علمى ، معارضا مذهب « أدم سميث » ٠٠ فكان لا بد لأساتذة الاقتصاد من عرض المذهبين ٠

وأنت ما رأيك وما موقفك من هذه الآراء ؟! ٠٠

ـ اطمئن يا سيدى النائب ! انى باعتبارى وكيلا للنيابة لن يكون لى غير واجب واحد : أن لا أحنث باليمين التى حلفتها للدولة ٠٠ وأن أقوم بواجبى وأطبق القانون بالامانة والصدق ! ٠

***

ومرت السنون ٠٠ وانتقلت بعد ذلك من وظائف الدولة الى ميدان القلم ٠٠ وانتقلت تلك الآراء من قاعات الجامعات الى ميادين الصراع بين الامم ٠٠ وانقلب الجدل العلمى بين «ماركس» و « سميث » الى نزاع سياسى بين كتلة شرقية وكتلة غربية ٠٠ وبعد أن كان ميدان العلم منقسما الى معسكرين لعالمين « بكسر اللام » أصبح ميدان الدنيا مقسما الى معسكرين لعالمين « بفتح اللام » ٠٠

انى الآن حر ٠٠ غير مقيد بيمين ٠٠ فلو أتيح لأحد أن يعيد على طرح السؤال القديم :

« وأنت ما رأيك وما هو موقفك من هذه الآراء » ؟! ٠

ترى بماذا أجيب اليوم !! ٠٠

***

أجيب بشىء واحد : ان عهد الايمان بالنظريات قد ولى من حياتى ، وأنا لم أعد أذكر الآن تفاصيل تلك الآراء التى كنا نتحمس لتنفيذها أو اعتناقها ، ولكن التقدير الشخصى للاشياء قد حل فى نفسى محل التأمين الشامل على كل ما كان يهز مشاعرنا من أفكار ٠٠

لا أستطيع اليوم أن أنضم الى « ماركس » أو الى « سميث » فكلاهما صادق وكلاهما كاذب ، ولا أستطيع أن انضوى تحت لواء « الشيوعية » أو الرأسمالية » ، فكلاهما مصيب وكلاهما مخطىء ٠٠

كل ما أستطيعه هو أن أستخلص من تاريخ البشرية ومن تجارب هذين المذهبين واصطدامهما بطباع الناس وظروف الحياة ، حقائق ثابتة ، أو قل عقائد شخصية ، ليس من السهل على أحد أن يزحزحها من نفسى ٠٠

أولى هذه الحقائق أو العقائد أن الثورة الروسية ليست سوى الشطر الآخر المكمل للثورة الفرنسية ..

ثورتان دمويتان ارتكب فيهما كثير من الجرائم باسم الحرية . حرية الشعب ضد طغيان النبلاء في الاولى .. وحرية العمل ضد طغيان رأس المال في الثانية .. وقد استخدم في سبيل هذه الاغراض من وسائل العنف ما نفر النفوس واقشعرت له الأبدان .. وتطرف رقاص ساعة الزمان من نهاية الى نهاية .. باحثا عن وضعه الصحيح الذى فيه يستقر استقرار الحقيقة المعقولة المقبولة ..

وهذا رقاص الساعة في الثورة الفرنسية بعد أن قطع كثيرا من الأعناق وأسال كثيرا من الدماء ، وانكشف للأعين بعد ذهاب العاصفة هذه الحقيقة ..

ليس المقصود محو طائفة أو الغاء طبقة .. بل المقصود ازالة فوارق والغاء امتيازات .. فليبق النبلاء اذا شاؤوا ، ولكن ليس لهم اليوم أن يقولوا لغيرهم من أبناء الوطن : دمنا أزرق ودمكم أحمر ، ولا نقف معكم أمام محكمة ولا نخضع معكم لقانون ، ولا نجلس الى جانبكم تحت قبة مجلس ..

كانت الحقيقة الثابتة التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية هي :

حقوق الانسان .. ذلك الانسان الواحد الذى لا تمييز فيه بين دم ودم .. حقوق المواطن ، ذلك الفرد الذى يتمتع بعين الحقوق المدنية والسياسية ويخضع لما تفرضه من واجبات دون تفريق بين مولد أو منبت أو مرتبه .. وسرى هذا المبدأ فى الارض وجعل أساسا لأكثر الأمم .. ولم يعد من الضرورى لتطبيقه اقامة نظام خاص من الحكم .. فالملكية والجمهورية تصلحان على السواء اطارا للمحافظة على حقوق الانسان والمواطن ! ..

ثم جاءت الثورة الروسية فقالت : نعم .. لقد زال امتياز النبلاء .. ولكن ظهرت طبقة أخرى ذات امتياز وطغيان .. هى طبقة أهل المال .. يجب الغاء هذه الطبقة .. فلا يوجد فى الدولة غير أهل العمل .. ويجب أن يكد العامل للمجموع .. فلا قيمة لحقوق الانسان ، بل القيمة الاولى لحقوق الجماعة .. ولا اعتبار لحقوق المواطن .. بل الاعتبار الاول لحقوق الوطن ..

وقامت الثورة كالرياح الهوج فعصفت بالنظم السياســية والاجتماعية والدينية ·· وسالت الدماء أنهارا ·· وتطرف رقاص ساعة الزمان من نهاية الى نهاية ، باحثا عن وضــعه الصحيح الذى فيه يستقر استقرار الحقيقة المعقولة المقبولة ··

ولم يهدأ بعد رقاص الساعة الروسية ·· فان هذه الثورة لم يمض عليها أكثر من نيف وربع قرن ·· وقت قصير بالقياس الى الثورة الفرنسية التى مضى عليها قرن ونصف قرن ! ·· ولكن من المستطاع بعد ذلك أن نستخلص منها الحقائق التى يمكن أن تتبلور وتثبت وتمكث فى الارض ··

من هذه الحقائق الثابتة فى رأيى : حق الجماعة وحق الوطن ، فهى تكمل الشطر الذى بدأته الثورة الفرنسية : حق الانسان وحق المواطن ، أما نظام الحكم فسوف تثبت الايام ـ ان لم تكن قد أثبتت بالفعل ـ بما يحدث فى انجلترا اليوم ـ انه ليس من الضرورى أن يتخذ الشكل الذى ارتآه الروس ، ولا أى شكل خاص من الاشكال ·· فالملكية والجمهورية أيضا سواء فى صلاحيتها اطارا للمحافظة على حقوق الجماعة والوطن ··

***

وبعد ··· فلأترك هذا الحديث العام ، ولأعرض ما أراه صالحا لبلادى ·· ولا تعنينى الاسماء ولا الصفات ولا التعاريف ·· ولا أفكر وأنا أتكلم برأسمالية أو اشتراكية أو شيوعية ·· انما أنا أبسط ما أتمناه لأهل بلدى من اصلاح دون تقيد بمبدأ أو بمذهب ·· فليس أخطر على أمة من أن تلبسها مذهب أمة أخرى دون نظر الى طبيعتها وحاجتها وحجمها وذوقها وروحها ·

أريد أن تتحقق فى بلادى ثلاثة أشياء :

الأول ـ أن يكون كل ولد يولد ، وكل مواطن يوجد ، ملكا لنفسه وملكا للوطن فى آن ·· كما أن الخلية فى الجسم ملك نفسها وملك للجسم ·· فالوطن مسئول عن الصحة الجثمانية الذهنية لكل مولود وموجود ·· فالتطبيب بالمجان والتعليم بالمجان ·· ان لم يتحقق هذا فلا قيمة لوجود الوطن ·· كما لا قيمة لوجود الجسم اذا تخلى عن مصائر الخلايا ·· كذلك ما يملكه الفرد فى أرض الوطن هو ملك للفرد وملك للوطن فى آن ·· لأن قطعة الارض قطعة من لحم الوطن ·· فلا يجوز للفرد

أن يسيء استغلالها ٠٠ أو أن يعجز باهماله أو جهله من استخرج كنوزها وتعطيل نفعها ٠٠ فعلى الوطن أن يقسم أرضه أو لحمه الى مناطق تعاونية ، يجرى فيها البذر والزرع والحرث والسماد والحصاد والدراس بآلات حديثة وخبرة علمية ٠٠ لتنتج أكثر ما يمكن من محصول ٠٠ هو ثروة للوطن وثروة للفرد فى آن ٠٠

الثانى ـ أن تمتد يد الضرائب التصاعدية بقوة الى رقاص ساعة العيش ، فلا يتطرف من نهاية الثراء الى نهاية الفقر ٠٠ ليهدأ فى الوضع المعقول المقبول الذى يقارب ويجانس بين أبناء الوطن ٠٠ وأن يكون لحكومة الوطن رقابة دقيقة على شركات المرافق العامة كالمياه والنور والمواصلات ٠٠ الخ ٠٠ حتى لا يكون لها غير ربح زهيد لا يبهظ أفقر الناس ٠٠ فاذا تولت الحكومة ادارتها مبالغة فى الحرص على مصالح الكافة كان ذلك أفضل وأتم ٠ يضاف الى ذلك واجب آخر على حكومة الوطن : توفير السكن الصالح وتدبير العمل للعاطل وفرض الحد الادنى للأجر الذى يصون للأجير كرامته الآدمية ٠ ويكفل له كمواطن كيانه الداعم لكيان الوطن ٠

الثالث ـ العلاقة بين رأس المال والعمل ٠٠ وهو جوهر الخلاف بين المذهبين المتصادمين ٠٠ أحدهما يقول ان رأس المال يستغل العمل ويربح كل كده ويجرع جميع عرقه ٠٠ والثانى يقول ان رأس المال هو الذى يجازف ٠٠ فله وحده ثمرة جسارته ، والحقيقة التى أراها فى طريق التبلور : هى أن لا تطالب كالمذهب الاول بالقضاء على الرأسمالية ٠٠ ولا أن تتركها كالمذهب الثانى تمرح وحدها فى ثمرة الاستغلال ٠٠ ولكن تجعل فى رأيى للعمل شعارا ٠ يواجه به رأس المال : « استغلنى واشركنى فى الربح! »

***

هذا تخطيط بسيط فيما أراه فى هذا الأمر ٠٠ لست أحفل بما يمكن أن يسمى بين المذاهب ٠٠ حسبى انه اتجاه أراه نافعا ٠٠ ميسور التنفيذ ٠٠ آمل أن يرى ضوء الشمس فى بلادنا ذات يوم ٠

١١ أكتوبر ١٩٤٧ ٠٠

٢٠

فى الاقصر

قال لى رفقاء السفر : « أعد حقيبتك ، المحطة القادمة هى « الاقصر » ، وذهب كل الى مقصورته فى عربة النوم ليحزم أمتعته ، وما انتهيت من شأنه حتى كان القطار قد وقف على رصيف المحطة ، وأقبل الحمالون يهجمون على النوافذ ، فحملت حقيبتى ، وما كنت أخرج بها من مقصورتى ، حتى مرت أمامى حسناء ، عرفتنى ولا شك ، قد نظرت الى نظرة لم أتعودها من النساء ، نظرة ليس فيها كراهية ولا استهزاء ، ولكن فيها كثيرا من الاحترام ، وأثرت فى نفسى هذه النظرة ، فلم أدر ماذاصنعت بعد ذلك بالحقيبة ، كل ما أذكر أنى سلمتها لأول يد امتدت الى النافذة ، ونزلت من القطار ، ولحق بى رفقاء السفر يسألوننى عن أمتعتى .. فانتبهت وقلت لهم : لا أدرى من أخذها .. ابحثوا .. وضاعت الحقيبة ، وكان معنا رجل من أصحاب النفوذ فى المدينة .. ظل يتحرى ، ونحن فى انتظاره على باب المحطة حتى وجدها ، وسرنا فى طريقنا الى ـ ونتر بالاس ـ واذا جيش من باعة ـ الانتيكة ـ يسدون علينا الطريق بمعروضاتهم من التماثيل الصغيرة التى تمثل الملوك والآلهة

والجعارين •• فقال لى رفقائى :

« اياك أن تشترى منها •• انها ليست أصلية •• كلهـا تقليد » •• فطردت الباعة ، ومشينا فى أفخم شوارع الاقصر ـ كما قيل لى ـ فغرق حذائى فى التراب والوحل ، واكتأبت نفسى لحقارة المبانى على الجانبين ، وقذارة الحوانيت على الصفين ، ولم يلبث أن أفضى بنا ذلك الشارع المزرى الى هيكل قائم على أعمدة عظيمة ، عجبت لوضعه فى ذلك المكان ! •• فسـألت رفقائى : « ما هذا ؟ فقالوا : هذا معبد الاقصر » ••

فقلت لهم :

ـ طبعا •• ألا تراه متهدما غير مسكون ؟ •

ـ أهو أثرى ؟ ••

ـ وهل هو أصلى ؟ ••

ـ طبعا •• وهل تظنه تقليدا ؟! التقليد والتزييف يكون فى التحف الصغيرة من الخواتم والتماثيل والجعارين وليس فى المعابد والهياكل ••

ـ صدقتم •• هذا غير ممكن •• وياليتنا كنا نستطيع بعض تلك التقليد فى هذا الأمر أيضا •• فما كنا رأينا على الأقل أفخم شوارع الاقصر بهذه البشاعة ! ••

ودنونا من ذلك المعبد بأعمدته المتوجة بحجارة فى صورة زهرة اللوتس ، فتسمرت قدماى ، وحرنت عن السير ، وزاغ بصرى من الدهش ، ولم أصدق أن هذه الآية الفنية لنا ، وفى بلادنا ، وفى بلدة بهذا القبح •• وما قولك فى كنوز ثمينـة وتيجان مرصعة بالجواهر فى حجر شحاذ يتعثر فى الاطمار ، يلعب بها فى التراب ؟! وجذبنى رفاقى صائحين :

ـ « هلم •• غدا تشبع من هذه الآثار فى وادى الملوك ! » •

ودخلنا الفندق ، فشعرت للفور بأنى فى مكان نظيف ، وارتاحت نفسى لأبهائه المفروشة ، وشرفاته المطلة على النيل والمشرفة على الحدائق ، انه ليس من البلدة ولا شك ، فهو دخيل عليها •• بل لعله ألقى من السماء على هامشها ليؤوى الضيوف ، ويحمى الاجانب من شر ما حولهم ••

وقالوا لنا أن لا مكان لنا فيه ، فحجراته كلها محجوزة ، لأن أعياد رأس السنة قد زحمته ، ولكن رئيس مجلس الادارة

« توفيق دوس باشا » علم بالامر ، فسألنى باسما : « هل جاء معك حمارك ؟ » • فقلت : أننى بدونه لا أجد محلا ، فكيف لو حضر ؟ » • فقال : اطمئن ، ستجد له ولك » • وأمر فى الحال لنا بحجرتين فاخرتين ، ولأول مرة ، أرى لحمارى مكانة تنفعنى وتنقذنى ! •• وللمرة الاولى أرى رجلين آدميين محترمين ، الاول صحفى مشهور ، والثانى نائب فى البرلمان يتشاجران من حولى ويحاول كل منهما أن ينتحل صفة ـ حمارى ـ ليظفر بالغرفة الفاخرة ! ••


توت عنخ آمون

وجاء الغد ، فقمنا مبكرين الى ـ الضفة الغربية ـ من النيل مدينة الموتى ، كما يطلق عليها ، حيث مقـابر الملوك توت عنخ آمون ـ و « رمسيس السادس » الخ •• ومعابد : الدير البحرى والرمسيون وحابو الخ •• مما تجده فى كتب السياحة مفصلا ويقودك اليه التراجمة والأدلاء طول النهار ، ويقصون عليـك من أجبـــارهم ما يعرفون وما يهرفون • والتف من معى حولهم يستمعون ، ولم تكن لى آذان تسمع ، ولم يكن يعنينى أن أعلم ما قرأت وما أستطيع أن أقرأ فى كتب الآخرين ، ولكن الذى أريده هو أن أتصل بروح القدماء بغير وسيط ، يجب أن أفهم أولا لماذا شيدوا هذه الاعمدة الضخمة ؟ لقد رأينا فى معبد ـ الكرنك ـ فى الضفة الشرقية أعمدة طولها ثلاثون قدما ، ولا بد من عشرة رجال يفردون أذرعتهم ليعانقوا الواحد منها ، أكان من الضرورى أن يشيد عامود بهذه الضـخامة ليحمل سقفا ؟ هكذا سأل بعض المشاهدين •

فأجبته : « لم تشيد هذه الاعمدة لتحمل السقف بل لتحمل الدهر ! » •

كل شيء فى آثار أولئك الاجداد يكاد يصيح فى وجه الزمن : « لن تطمسنى ، لن تزيل معالمى ! ·· ها أنا ذا أحملك أيها الزمن منذ آلاف السنين ، وقد أنوء قليلا تحت وقرك المخيف ، ولكنى لا أخر ولا أتلاشى ! » ·

لماذا أراد القدماء مقاومة الزمن ؟ يقول المؤرخون والباحثون هى الفكرة الدينية وحدها ·· هى اعتقادهم أن صيانة الجسد شرط لازم للبعث ، لأن الروح بعد الموت اذا لم تجد جسدها محفوظا لتحل فيه ، هامت وضلت ، واستحال بعث الميت ، لذلك عنى الملوك والعظماء بحفظ أجسادهم فى تلك الآثار والمقابر التى لا تبلى ·· ربما كان هذا صحيحا ·· ولكن ليس هذا كل ما فى الأمر فى رأيى ، فلو كان هذا كل غرضهم لاكتفوا بمتانة البناء ولم يلتفتوا الى جمال الفن ، ولكن الذى هزنى فى آثارهم ، هو ذلك الاتقان الفنى الذى يبهر العقول قبل الانظار ، ذلك التناسق فى الالوان والاصباغ التى لا يزال فيها لليوم نضارة تشع من الجدران ، وذلك الحرص الدقيق على تتويج العامود الهائل بزهرة لوتس أو بردى منقوشة ملونة فى حجم لم يصنع مثله لزهرة فى تاريخ الفنون حتى الآن ·

انه الاتقان ، انه الصبر الطويل للوصول الى الكمال ، لقد قال الشاعر بوالو ــ ان العبقرية ليست سوى الصبر الطويل ، وهذا ما يدهش فى فنهم ! انه الصبر ·· الصبر ! كم من الزمن استلزم نحت تمثال عظيم كأحد تمثالى ــ ممفون ــ طولة عشرون مترا فى صخرة واحدة ؟ ·· بل كم من الزمن لرفع تلك الزهرة الهائلة فوق ذلك العامود الهائل ، قبل أن تعرف الرافعات البخارية ؟ يخيل الى أنهم لم يسألوا أنفسهم عن الوقت ، فى الفن لا تحفل بالزمن يحفل بك الزمن ، فاذا أسرعت أو تسرعت خوفا من اضاعة الزمن أضاعك الزمن ، ونحن فى العصور الحديثة نخشى أن يضيع وقتنا فننشىء العمارات سريعا ، فلايكاد ينزل عنها البناء حتى يظهر الصدع ، ومثل محكمتنا المختلطة لم يبرح بعد الاذهان ، لا يشترى الزمن الا بالزمن ، أنفق الزمن بسخاء فى العمل الفنى تظفر له بالبقاء ، فهم هذا الدرس المصريون القدماء فكاد خلودهم فى الجمال الفنى . لا فقط فى خلود البناء ، وهذا ما فهمته من آثارهم وما أحب أن يفهم ليست

الفكرة الدينية وحدها هي التي دفعتهم الى هذا العناء ، بل الفكرة الفنية أيضا ، انهم كانوا قوما يطلبون في الفن الكمال ، ويتذوقون الجمال ، ان لم يكن ذلك فبماذا نعلل انشاء معبد كمعبد ـ الكرنك ـ الهائل بتلك الالوان تصبغ أعمدته من الظاهر ، وتزهو في ضوء الشمس ، وتطرب البصر بألوان عجيبة التركيب .. منظر ـ فيما أتصور ـ قد رآه البشر مرة على رمال هذا الوادي .

ولن يسمح لعين بشرية برؤية نظيره مرة أخرى ، ذلك أن الفنان الذي يعرف ذلك الصبر ويستهزيء بالوقت من أجل فنه ، ذلك الاستهزاء لن يوجد مرة أخرى على هذه الارض ، بل أن ذلك الشعب الذي أراد أن يمتع بصره وروحه بذلك الفن الخالد ، مضحيا في سبيل تلك المتعة بكل عزيز لن يظهر مرة أخرى في هذه العوالم الغارقة في المادة الرخيصة ومطالب العيش المبتذل ..

قال قائل من المشاهدين : « انها السخرة .. انها الضحايا الآدمية العديدة التي مكنت لهذه الاعمال ! » .

فقلت له : « وفي عصرنا الحاضر كم من ملايين الضحايا الآدمية في حربين متقاربين مكنت لهذه الأنانية والوحشية ، وكم من مئات الملايين من الذهب أنفقت في القنبلة الذرية ؟ .

في الماضي كانت التضحية على الأقل في سبيل الخلود .

وفي الحاضر التضحية هي في سبيل الموت .

كانوا قديما ينفقون ويبذلون ويبقى الفن متعة للاجيال .

واليوم ينفقون ويبذلون للتدمير العام وابادة الشيوخ والنساء والاطفال .

***

وعدنا في المساء الى الفندق ، وجلسنا في البهو نتناول الشاي وأنا أفكر فيما رأيت ، وأقول في نفسي : مهما يكن من أمر أنانية الحضارة ، فانها هي التي قدرت آثارنا ، وها هي ذي أغلبية السائحين والمشاهدين من الاجانب ، وهم في عواصمهم يحاولون امتاع أبصار شعوبهم بالجميل من فن البناء ، والبديع من التماثيل يقيمونها في الشوارع .

أما نحن في مصر .. نحن أحفاد أولئك الفنانين العظام ..

أساتذة البشرية في العمارة والنحت والنقش .. فلا تعرف عواصمنا غير شوارع معفرة مغبرة ، لا يقوم فيها بناء واحد يشعرنا بروعة ، ولا ميدان ينهض فيه تمثال يأخذنا بمتعة أو فتنة أو سحر ، ولقد صاح فينا من قال : المسلات في الصعيد ملقاة في الحقول ، والتماثيل الرائعة القديمة مبعثرة في الرمال ! زينوا ببعضها ميادين العواصم ، ولكنها صيحة لاتنفع في شعب حكامه ومحكوموه لا يتذوقون الفن ، انها لسخريه من الزمن أو انتقام أن يبتلى أولئك الأجداد بمثل هؤلاء الأحفاد ! ..

ولكن هل نيأس ؟ أو نأمل ونتعلم وندرس ؟ من رأيي وقد تطورت الطبقات المتوسطة والفقيرة بعض التطور ، واتسعت مطالبها ، وأصبحنا نراها في المصايف ودور السينما .. أن نرشدها بعد ذلك ونيسر لها مشاهدة الجمال الفني ممثلا في آثار بلادها .. وانه من جهة أخرى عمل اقتصادي مربح لرجال الاعمال .. وقد حادثت في ذلك أحد كبار الاقتصاديين ونحن في بهو الفندق فقال :

ـ فكرة طيبة ، ولكن كيف نأمل في اتساع نطاق السياحة في مصر ، والمواصلات بهذه الصعوبة ؟ في أكثر بلاد السياحة يعتمد على الطرق أكثر من الاعتماد على السكك الحديدية ، لأن السيارات الكبيرة خير وسيلة للنقل في هذا المجال ، بل أن أكثر السياحين يفضلون التنقلات بسياراتهم الخاصة ، ولن يتسنى ذلك الا باصلاح الطرق ، عندئذ نرى الفنادق العديدة قد أنشئت على جوانب الطرقات في كل بقاع القطر ، والمقاهي ، والملاهي وكل ما يجتذب السائحين وينشط حركة التجارة .. ان حكوماتنا تظن أن المال الذي ينفق في اصلاح الشوارع والطرق . هو نقود تلقى في الشوارع ! .. ولكنه في الحقيقة مال يرد الى الحكومة مضاعفا ، خذ مثلا طريق الصحراء الذي أنفق في انشائه حوالى ثمانمائة ألف جنيه ، لقد دلت الارقام على أن ما دخل خزينة الدولة من ضريبة البنزين على السيارات المارة في ذلك الطريق خلال عامين فقط بلغ نحو مليون ونصف من الجنيهات ..

وهنالك مشكلة أخرى يجب تدبيرها من الآن ، ففي الغد ستهبط أثمان السيارات ، وستتضاعف عددها ، ففي أي

طريق تسير ؟ هل يكتفى بتركها تتكدس في شوارع العواصم ؟!
ـ كل مال يلقى فى اصلاح طريق زراعى ، هو بذور تلقى فى حقل خصيب يرمى من الخير والفائدة ما لا يقع فى الحسبان ، فالأداة الحكومية تصلح وتؤتى أسرع النتائج .. فالاتصال بجهات الادارة يسهل .. والانتقال فى الحوادث الهامة العاجلة ، وفى شئون الصحة ومكافحة الاوبئة وفى التفتيش (فى التعليم الالزامى المبعثر فى القرى) وسرعة المرور والاشراف فى الزراعة والضرائب والامن .. وبالاختصار سيحدث انقلاب فى حركة المرافق العامة كلها وادارة الدولة .
ـ بالطبع ان الطرق ، هى شرايين ذلك الكائن الحى الذى يسمونه « بالدولة » فهل يمكن أن ينبض قلب دولة بالحياة وهى بغير شرايين سليمة ؟ ان هذا لا يجوز فى عرف الطبيعة ، ولا فى عرف الطب ..
ـ ولا فى عرف الاقتصاد القومى ، ولا فى الكيان الوطنى ..
لبثنا فى الاقصر بعد ذلك يومين لا ندرى ماذا نصنع بهما ، ولا كيف نشغلهما ، وقد زرنا كل ما يستحق أن يزار من آثار ، وقد قيل لى أن تلك هى المشكلة لكل سائح ، والاجنبى على الأخص ـ فآثارالاقصر ترى كلها فى يومين أو ثلاثة .. ولا يجد السائحون ما ينفقون فيه أيامهم بعد ذلك ، فلا ملاعب للرياضة ، ولا كورنيش للسير على الاقدام ، ولا مروج ومتنزهات للانتفاع بالشمس والهواء ، ولا كازينات ، ولا مسارح ، ليس غير الفندق يحبسون أنفسهم فيه يطالعون أو يلعبون الورق ، حتى يتاح لهم الرحيل .. وقد أسرعنا بالفعل راحلين الى أسوان ، وأنا أقول متحسرا :
ماذا يعطينا الله أكثر من ذلك ؟ .. لقد منحنا فى الاقصر معجزتين : معجزة الطبيعة فى ذلك الربيع الدائم ، ومعجزة الفن فى ذلك الابداع الخالد ! ما من مكان فى الدنيا تلاقت فيه لا يموت ، وأعجوبةصفاءسماء لا يزول ، هنا اجتمعتالمعجزتان ، وتعانقت الأعجوبتان .. ولكن تبين لى على الرغم من ذلك ، أن هنالك ما هو أعجب من هذا وأشد اعجازا : ذلك هو وجود أمة لا تستطيع الانتفاع بهاتين المعجزتين ! ..
٢٩ ديسمبر ١٩٤٥ ..

٢١

فى أسوان

لا أبغض شيئا فى السفر بغضى لقطار الصباح الباكر • انه يضطرنى الى الوثوب عجلا من الفراش ، فى تلك الساعة التى يلذ فيها الدفء ويحلو الكسل ، لذلك أضمرت فى نفسى أمرا للقطار السريع الذاهب الى أسوان ، وتناومت حينما جاء رفاق السفر لايقاظى ، ولم أفتح عينا حذرة الا عند ما استوثقت من أنى أضعت الميعاد وفات القطار ، ولم يكن بد بعدئذ من قطار العصر ، وهو بطيء لكع ، عاطل من « البوللمان » أثار سخط الصحاب ولكنه أرضانى •• جعل يقف دهرا على كل محطة خاوية فى خلاء الصحراء ، كأنما سائقه مكلف أن يسرى عن ناظر المحطة فى وحدته ، ويقص عليه أخبار المدن التى مر بها فى الطريق •• قلت لرفاقى المتذمرين :

ـ تريدون السرعة ؟ ولن يهلك الحضارة العصرية غير السرعة ! السرعة الملعونة التى تجرف حياتنا جرفا الى الفناء ، كأنها قشة فى تيار ماء ! ••

فنظروا الى شزرا ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء الرد ، فمضيت أقول :

ـ الوصول الى الغاية سريعا لا يهم ، المهم الاستمتاع بالطريق ، افتحوا أعينكم وتأملوا هذه الصخور الصفراء ، والحمراء ٠٠ انها مملوءة بعنصر الحديد ، ثم هذه المزارع الخصبة النابتة بقصب السكر ، هذه البقاع حولنا فيها متعة للبصر وثروة للبلد ، وعلى ذكر القصب ، انى أحبه ، ما قولكم لو نزلنا المحطة القادمة ، لنمص القصب ٠٠ ان فيه شفاء للناس ! ٠٠ فصاحوا بى فى صوت واحد :

ـ ننزل ؟ ٠٠ ما كان ينقص الا هذا ، ألا تعلم أن هـــذا القصب ناقل للملاريا ، وتبيض فى رؤوسه بعوضة « الجامبيا » ٠٠ ألا ترى هذه القبور المنتشرة فى الصحراء ضاقت بهـا القرى ٠٠ فألقيت وبعثرت فى الرمال كما ترى ، وليس على كل قبر سوى حجرة ٠٠ هؤلاء ضحايا الملاريا المنكوبين البؤساء ! ٠

فصحت من الفزع ، وأنا أنظر الى تلك الاحجار فوق الجثث التى يمر بها القطار حقا فى مسيره الطويل بين الاقصر وأسوان وقلت :

ـ أنقذتم حياتى ! ٠٠ لن أمس عود قصب منذ اليوم ! ٠٠

ودخل علينا الليل والقطار لا يبدو عليه شوق ولاعجلة لبلوغ أسوان ٠ حتى كدت أندم لاختيارى هذه السلحفاة البخارية ، وكاد رفاقى يضحكون تشفيا وشماتة ٠ فانكمشت فى ركنى وأطبقت عينى ، ونمت أو تناومت ، الى أن شعرت بالقطار يقف وسمعت أصحابى يقولون : « حمدا لله على السلامة ! » ٠

ذهبنا الى فندق « كتراكت » ٠ وقيل لى ان حجرتى تطل على النيل ، ولكن الليلة كانت ظلماء ، ولا قمر فى السماء ، فلم أبصر شيئا ونمت ليلتى وقمت فى الغد ٠٠ وفتحت النافذة ، ما هذا ؟ أهذا هو النيل ؟ أم أنا فى حلم ، أم هو نهر من أنهار الجنة التى لم تكشف لعين بعد ! ٠٠ ما هذه الجزر الصغيرة الخضراء ، كأنها خلقت ليلعب فيها الاطفال ، أو يرتع فيها بيض الاجنحة صغار ، فى وسط ماء ساكن لامع كوجه المرآة الصقيل ، انتشرت فيه صخور الجرانيت السوداء ، كأنها بط هائل يسبح بين الجزائر والضفاف ، ومن حول ذلك اطار من تلال عالية فى لون التبر كأنها السياج الذهبى لخاتم من ماس وزمرد وعنبر ! ٠٠ كل شىء أمامى فيه ضخامة وضآلة ، وعظمة وسذاجة ، وخيل

الى أن النيل يهمس فى أذني قائلا : « لا تعجب ! هنا شبابى ، انك آت من الشمال ، من قرب نهايتى ، هناك حيث ترانى أسرع الى المصب ، كما ينحدر الشيخ نحو القبر ، وفد عركت الايام فلم يعد يستوقفنى شىء ، وقابلت الحضارة فغيرت فى جانبى ، أما هنافأنا كما ترى صبى ، واقف يلعب بتلك الصخورالسمراء ، كما يلعب الصبية بكرات « البلى » وأضم الى صدرى الجزر الخضراء كأنها ألاعيب ، وأداعب أقدام التلال الصفراء كأنها قطيع غزلان ، لا أرى بعد ما يخبىء لى الغد ، ولا أتنسم بعد ريح البحر وهو لى بمثابة القبر ، ان حياة النهر من ميلاده الى مماته ، لا تقاس فقط بالزمان ، بل تقاس أيضا بالمكان ، فثق أنك فى هذه البقعة تشهد صباى وشبابى ، كما كان منذ خمسة آلاف عام ، واليك الدليل : تلك الصخرة من الجرانيت المنقوش عليها بالحروف الهيروغليفية انها فى مكانها من هذا الشاطىء منذ آلاف السنين ، انك ترانى الآن فى سذاجتى ونظرتى ، كما كنت قبل أن يعرف التاريخ ، انك ترانى فى عظمتى وقوتى ووحشيتى الغابرة : أنظر الى عضلاتى الصخرية الهائلة ، تلك التى قدمتها أروع مقابر مصر القديمة ! سواعدى الحجرية التى رفعت مصر فى هذه الآثار ، وأقامت آيات مابرحت موضع الانظار .. هذا هو شبابى ، أيها الرجل القادم من الشمال ، فاذا رجعت الى بلادك فقل لقومك : ليس الذى ترون هو النيل ، تعالوا الى الجنوب وأنتم تعرفون كيف كان النيل ! »

وأغلقت النافذة بخشوع ، كأنما أسدل الستار على ضريح ، وقد عذرت فى نفسى أولئك الذين فتنهم يوما جمال هذا النهر فعبدوه ، وتناولت فطورى ، ونزلت الى شرفة الفندق ، وغرقت فى مقعد كبير ، وجعلت أتأمل النيل من جديد ، الى أن أقبل رفاق السفر فاخرجونى من صلاتى وعبادتى ، وكان اسماعيل صدقى «باشا» من نزلاء « كتراكت » فضمتنا الشرفة ، ودار بيننا الحديث فى جمال النيل وجلاله .. ثم فى كنوزه الاقتصادية أيضا ، بل كنوز تلك المنطقة من أرض مصر ، فقال صدقى :

ـ ان الحديد الذى يمكن استخراجه من هنا ـ كما جاء فى بعض التقارير ـ يكفى حاجتنا مئات الاعوام ، وهو من أجود أنواع الحديد ، وربما استطعنا أن نصدر الحديد كما نصدر

القطن ، أما البترول الابيض الكامن فى ماء النيل ، وأعنى به القوة التى يمكن استخراجها من كهربة خزان أسوان ، وأثرها فى خلق مصر صناعة وحضارة فلا خلاف فيه بين أحد اليوم .
فقلت :
ــ اذن ما الذى يقعدنا عن الانتفاع بهذه الكنوز ؟ ..
ــ الاغراض السياسية .
ــ داخليا وخارجيا ، هــذا صحيح ، واذا استطعنا التغلب على التيارات الخارجية ، والضغط الاجنبى ،فهنالك آفتنا الداخلية الكبرى : السياسة للسياسة ، أو على الأصح : « السـياسة للحكم ، ان العقلية المصرية لم تتغير منذأجيال ، سواءفىالحكام أو المحكومين ، فالهدفالرئيسى للحكم هو السـيطرة ، ولعـل الاحتفـاظ التقليـدى بوزارة الداخلية ، أى البوليس والادارة


صدقى باشا

والضبط والربط ، فى يد رئيس الحكومة ، هو مظهر ورمز لهذه الفكرة ، لذلك يمكن فى رأيى تلخيص شعور الفرد العادى من فلاح وغيره فى هذه العبارة : « من لا يستطيع أن يحبسنى ليس له عندى اعتبار » ..
فضحك صدقى باشا ، وقال :
ــ هذا بالضبط هو الواقع ..
فقلت :
ــ ومتى اذن نستطيع أن نرى الفرد العادى فى بلادنا يقول : « من لا يستطيع أن لا يحسن حالتى ليس له عندى اعتبار » ؟
أظن أنه لو حدث هذا لتغير الوضع فى الحال ولم تصبح لنـا السياسة للحكم ، أو السياسة للسياسة ، بل « السياسـة للاقتصاد » .
وهم صدقى باشا بالكلام ، واذا رجل يدنو منه ويخبره أن

« شركة كوم امبو » أرسلت هدية الى دولته « لبشتين » من القصب « خد الجميل » •

فما كدت أسمع ذلك حتى صحت :

ـ قصب ؟ احذر يا باشا من القصب ، انه ناقل للملاريا •

ـ من قال لك ذلك ؟ ••

ـ هؤلاء ••

وأشرت الى رفاق السفر ، فاستغرقوا فى الضحك وقالوا :

ـ اضطررنا الى افهامه هذا ، لأنه كان يريد أن ينزلنا من القطار ليمص قصبا •

فابتسم صدقى باشا وقال :

ـ أتحب القصب ؟ ••

ـ جدا ! ••

ـ اذن أعطيك واحدة من « اللبشتين » •

وأمر أن يرسل الى حجرتى نصف « الهدية » •

***

لا بد لمن يذهب الى أسوان من أن يرى الخزان ، خزان أسوان احدى أعاجيب فن الهندسة الحديثة بلا مراء ، ولقد كثر الكلام فيه وفى كهربته ، ولكن كل كلام ضعيف باهت الى جانب الحقيقة ، يجب أن نرى الاشياء بأعيننا لأن العين تستطيع أن تحيط ، ولكن اللسان لا يستطيع دائما أن يعبر ، ما كدت أقف على ذلك السد الذى يرتفع أكثر من ثلاثين مترا، ويمتد الى أقل من كيلو مترين ، حتى سمعت هديرا كهدير البحر ، وضرب وجهى رذاذ كرذاذ المطر ، واذا المياه تندفع من عيون مفتوحة ، بيضاء كالقطن المندوف ، يعلوها بخار كأنه دخان حريق ، يستقبل ضوء الشمس ، فاذا قوس قزح دائم بألوانه الزاهية صاعد من النهر ، يخيم على صخور الشلال ، الخضراء منها والجرداء • هنا أيضا يد الطبيعة ويد الانسان تتصافحان فوق أعجوبة منظر ، هو بلا ريب مغر ونادر بين مناظر العالم ، ليتنا نتبعه ، كما قلت للحاضرين ـ فننشىء فى هذا المكان فندقا أو كازينو أو مشارب للشاى صغيرة فى بعض هذه الجزر الكثيرة ، فجمال الخزان يجب أن يستغل ، أما قوته فان القعود عن استغلالها حتى اليوم جريمة ـ ولن يخطر فى بال أحد فداحة

هذا الجرم حتى يرى بعينه كيف تنطلق من العيون هذه القوى الهائلة ليل نهار وتتبدد هباء ، لكان هذا الخزان قلب مصر الذى يتدفق بقوى دماء تنزف وتتبعثر ولا تحرك عضلة من العضلات أو عضوا من الاعضاء ٠٠ قال لى بعض مهندسي الخزان آن وزير روسيا المفوض عندما جاء أسوان التف حوله بعض شباب الموظفين يسألونه عن البلشفية ، فقال لهم وهو ينظر الى تلك المساقط المائية الجبارة : « لا تهتموا هكذا بالسياسة ، التفتوا الى اقتصاديات بلادكم ! » ٠

وأبحرنا بالقارب البخارى فى المياه المخزونة ، وهى كما أخبرونى حوالى خمسة آلاف مليون من الامتار المكعبة ، ينفق منها بحساب دقيق لحاجة مصر من الشرب والرى والملاحة خلال العام ، ومررنا بمعبد « أنس الوجود » فرأينا الماء قد غمره ، ولم يبد منه سوى قمة مدخله ، على أن التلال المحيطة بنا فى ذلك المكان كانت حقا عجيبة ، هنالك أحجار هائلة من الجرانيت يقعد أحدها فوق الآخر مائلا ، وكأنه يتكىء على قاعدة أحجار هائلة يقف أحدها فوق قاعدة فى حجم البندقة ، وهو فى جلسته هذه لا يقع منذ الحقب ، وان خيل لنا أنه لو نفخ فيه بالفم لوقع ، قال قائل من الحاضرين : عجبى لهذا الحجر الذى لم يسقط للآن ! ٠٠ فقلت : « ذلك أنه لا يجد أحدا ها هنا يسقط عليه ، شأنه فى ذلك شأن « المصيبة » انها تخلق قبل الانسان ، وتقدر له قبل أن يولد ، وتكتب عليه فى لوحه المحفوظ قبل أن يوجد ، وتظل معلقة كهذا الحجر الى أن يظهر فتنقض عليه ! » ٠

عدنا بعدئذ الى الفندق ، وأقبل الليل ، وجاء معه السرور والبهجة والمرح ، فهذه ليلة رأس السنة الميلادية ، وكانت قد أعدت لنا مائدة حافلة بالأصدقاء ، فجلسنا فى ثياب السهرة ، نأكل الديك الرومى ، وننظر الى الرقص الدائر فى الحلبة تحت صخب الطبلة والصناجة والسكسفون ، ورنين الكؤوس ، وصياح السكارى ، وصوت النفخ فى الزمارات من الورق المقوى واللعب من الصفيح التى يوزعونها على الحاضرين حثا لهم على احداث الضجيج وصراخ الذين يتراشقون بكرات الورق الملون ، وقد وضع الجميع فوق رؤوسهم الطراطير والتيجان الموشاة بماء الذهب والفضة على ورق شفاف مبرقش ، وكان أكثر

النزلاء من أثرياء الحرب ـ بالطبع ـ من المتمصرين والاجانب المحليين ، هذا يومهم ، وفى هذه الأمكنة تتدفق الدماء التى امتصوها من أجساد العباد خلال سنوات طوال ..

وكنت قد وضعت ـ بفضل عناية أهل الكرم والبصيرة ـ بين سيدتين جميلتين ، حتى اذا أطفئت الانوار فى منتصف الليل ، ايذانا باجتيازنا أعتاب العام الجديد ، أقبل وتقبلنى احدى هاتين الجميلتين المليحتين ، عملا بالعادة المتبعة والتقليد المرعى ، فاطمأنت وطمعت وصبرت ، وجعلت أرقب الساعة الموعودة مستبشرا .

وأخيرا .. أطفىء النور . وعلا التهليل ، وتم التقبيل ثم أعيد النور .. فنظرت ـ للمصيبة التى كتبت على ـ فاذا بالجميلتين غير موجودتين .. واذا بى قد قبلت .. يا حفيظ .. اللهم اجعلها خيرا سنة ١٩٤٦ ..

٥ يناير ١٩٤٦ ..

٢٢

فى الزفة ..

ـ لماذا لم تتقدم الى الانتخابات ؟ ..

سألنى أحدهم ، وأنا جالس على افريز قهوتى ، هذا السؤال الذى ألقى على مرارا .. وقد هممت بالرد المعتاد ! « على أى المبادىء أتقدم وأى البرامج أتخير وأنا رجل بعيد عن الاشخاص والشخصيات ؟!! » ولكننى قبل أن أفتح فمى بهذا الجواب ، سمعت ضجيج موسيقى مقبلة ، وأبصرت جمعا من الناس يحملون صورة انسان ، ورهطا من الصبيان يوزعون اعلانات مطبوعة ، فحسبتها دعاية لرواية تعرض فى أحد المسارح .. وتفرست فى الصورة المحمولة ، فلم أجدها صورة شارلى شابلن ولا أحد اخوان ماركس ولا نجيب الريحانى ولا على الكسار ، اذن من يكون هذا البطل المغوار ؟! .. ومددت يدى ألتمس اعلانا من تلك الاعلانات التى ينثرها علينا الموزعون ، وأنا أسأل أحدهم :

ـ اللعب يا ولد الليلة ؟! ..

فحملق فى وجهى قائلا « اللعب » ؟!! ..

وكنت عندئذ قد نشرت الاعلان فى يدى وقرأت :

« الى الأهل والعشيرة .. الى العمال والصـــناع والفقراء

والمساكين ، انتخبونيوأنا أقلبلكم خيشكم الى حرير ، وشقائكم الى نعيم ، ونحاسكم الى ذهب ٠٠ » ٠

ولم تغير هذه القراءة من موقفي شيئا ، فقد قلت للموزع :

ـ وهذا الحاوي متى يحدث هذه « المعجزات » ؟! ٠٠

ولم يرد على الرجل لأن الموكب كان قد ابتعد بموسيقاه الصاخبة بألحان : « يا عروسه يا زاينه الزفة ٠٠ الخ » ٠٠ تزفصورة المرشح وهيتهتز وتتمايلفوق الاكتافوالرؤوس ٠

وكانالصديقالذي يسألني : « لماذا لم تتقدم الىالانتخابات» لم يزل الى جواري ينتظر جوابي ، فالتفت اليه قائلا :

ـ الموضوع كما ترى أصعب مما كنا نظن ، فلا بد لي قبل كل شيء من احضار موسيقى وصورة واعلانات ، ثم بعد ذلك لا بد لي من التلويح للعمال والصناع والفقراء والمساكين بوعود ، وبعد أن حول لهم صاحبنا هذا النحاس الى ذهب ، لم يبق لي أنا الا أن أحيي لهم موتاهم ! ٠٠

فلم يبد على صديقي انه اقتنع ، وقال لي :

ـ على كل حال افعل كما يفعل الآخرون من المرشحين ٠

ـ لا أستطيع ٠٠ لا أملك مواهبهم ٠

المسألة لا تحتاج الى مواهب ، أنت رجل كسولي ، هذا كل ما في الأمر ، ولكن اعلم أن هنالك سماسرة يقومون عنك بأكثر الاعمال ، فمنافسك الخطير يمكن اقناعه بالمال لينزل لك عن الدائرة ، لأن مبدأ « خلو الرجل » المعمول به اليوم في أزمة المساكن معمول به أيضا في سوق المقاعد ، فاذا احتجت الى أصوات تضارب بها خصمك ابتاعوا لك منها ما شئت ٠ الألف صوت مقابل عشرين أو ثلاثين جنيها حسب العرض والطلب ٠٠ واذا أردت خطبـــاء وولائم وحفلات فهنالك من يجهزهـا لك ويستأجر ما يلزم لها من أدوات ورجال ٠٠ فلا مشقة عليك كما ترى غير مجرد الركض أسبوعين في أنحاء دائرتك الانتخابية من الصباح الى المساء تترضى الناخبين ، حتى تخور قواك ٠٠ ولكن ماذا يضيرك هذا الجرى ما دمت تظفر آخر الأمر بمقعد مريح تجلس عليه طويلا في أهنأ حال ٠٠

ـ كل هذا حسن ولكن الوعود ٠٠

ـ عد بما شئت ٠٠ ما الذي يخيفك ؟ هل أحد سيطيح عنقك

بالسيف اذا لم تنفذ ؟ ..
ـ أقصد بماذا أعد ؟ ..
ـ بكل ما يحلو لك ويخطر ببالك .. على شرط أن يكون كل شيء لمصلحة العامل والصانع والفلاح ، تلك هى النغمة المحبوبة الآن .. « موضة » اليوم هى اجتذاب هؤلاء بالوعود ، اعطهم من طرف اللسان ما استطعت من شهد وعسل وحلاوة طحينية ، ولا تهتم بالباقى .. المهم هو أن تدخل البرلمان ..
ـ دخلت البرلمان ..
ـ انتهينا ..
ـ وبعد ؟ ..
ـ لا يوجد بعد ، لقد صرت نائبا محترما ودخلت تحت « قبة » البرلمان بالطبل والزمر والموسيقى .. وهل يسأل العريس بعد الزفة والدخلة قائلا : « وبعد » ؟ لا يوجد « وبعد » غير .. الزغاريد والتصفيق والهناء بعد العناء ..

وسكت الصديق ، ولم أرد عليه ، واكتفيت بالاصغاء الى صوت الموسيقى فى الموكب المبتعد يحملها النسيم خافتة الى أذنى بلحن :
« عروستنا يا زاينة الزفة .. » .
١٣ يناير ١٩٤٥ ..

« تم »



كتاب روز اليوسف
العدد القادم
أبيضه في أسود

العـدد الرابع

سبتمبر سنة ١٩٥٤

يصدر عن دار « روز اليوسف »

الاشـتراكات

١٢٠ قرشا عن سنة داخل القطر ..

٦٠ قرشا عن نصف سنة داخل القطر ..

١٨٠ قرشا عن سنة خارج القطر ..

٩٠ قرشا عن نصف سنة خارج القطر ..

رئيس التحرير المسئول : فاطمة اليوسف

جميع المكاتبات والرسائل ترسل باسم « روز اليوسف

كتاب روز اليوسف » بريد البرلمان ـ شارع محمد سعيد باشا

تليفون : ٢٠٨٨٥ ـ ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨





الثمن ١٠ قروش